لَا تَسْأَلْنِي لِمَاذَا أَحْبَبْتُهَا

obeikandl.com

الكتاب: لا تسألني لماذا أحببتها
المؤلف: أحمد السعيد مراد
تصميم الغلاف: مي يسري
تدقيق لغوي: جهاد أبو زينة
رقم الإيداع: 2016/27076
الترقيم الدولي: 978-977-778-101-5

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 35860372 02
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

لَا تَسْأَلْنِي لِمَاذَا أَحْبَبْتُهَا

رواية

د. أحمد السَّعيد مراد

للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

تألَّقت أشعةُ شمس الصَّباح لهذا اليوم ببريقٍ ذهبيٍّ أخَّاذٍ، مقتحمةً برودته لتبُثَّ دفئًا مُنعشًا بالأجساد انعكس على نشاط السَّائرين بخطواتهم الواسعة، وتبسُّم الجالسين المتلذذين بالخِدرِ الجميلِ على إثره، وعزفت زقزقةُ العصافير النَّغمة المطلوبة للسِّيمفونية اللائقة بهذا المبنى اللامع بلونه الأبيض وطوابقه الثلاثة بشُرُفاته الواسعة، وحُجُراته عالية السَّقف، وطُرُقاته النَّظيفة، وتطوَّقته الأشجار بشكلٍ شبه كامل لِتَجذبَ إليه مختلفَ الطُّيور الحرَّة، لترفرفَ حوله بسعادةٍ، منشدة بأصواتها لحنًا للطَّبيعة التي تمنحه لمسةَ الجمالِ الرَّبانيِّ الخالدة.

وبلمعانها الدائم كانت اللافتة العريضة والأنيقة بحروف ذهبية بارزة مكتوبًا عليها «مستشفى الصَّباح الخاص لعلاج وجراحة الأورام».

ومن بين الرّدهات الأنيقة، وفي قاعة الاجتماعات، وكما تعوَّد طاقم قسم الجراحة في بداية كلّ صباح، أن يبدأ يومهم بمناقشة جميع الحالات المرضيَّة المحتجزة قبل اتّخاذ أي إجراءٍ علاجيٍّ أو جراحيٍّ معها، حتى لا ينفرد طبيبٌ بقرارٍ قد يصيبه القصور أو ضعف الخبرة، بالرغم من أن اختيار طاقم العمل بها تمَّ بعناية وصرامة شديدتين، وكان ذلك بإشراف الدكتور «محمد سعداوي» المساهم الرئيسي ورئيس مجلس إدارة المستشفى، كانت رائحة القهوة النفَّاذة تتسرَّب إلى أركان الغرفة المميزة بطاولتها البيضاوية الكبيرة، ومقاعدها السوداء الوثيرة، وعند الحائط الرئيسي المقابل لها يقف الدكتور سعداوي أمام كشَّافٍ ضوئيٍّ عريضٍ مخصصٍ لاستعراض الأشعة الطبية، ومعلق به ثلاث لوحات من الأشعات المقطعية لمخّ أحدهم، وبعد أن انتهى من استعراض الحالة المرضيَّة لصاحبها توقَّف وهو يبتلع ريقه الذي جفَّ على إثر الحديث لمدة عشر دقائق من الشرح المتواصل للورم؛ الذي التهم خلايا ذلك المريض ببطء كوحش رابض مطمئن يتلذذ بما يناله من خلايا، وبعد أن ازدرد ريقه نطق قائلًا:

- الورم منتشر حتى أنه قد أصاب المنطقة المسئولة عن النطق في المخ، ولا يمكن علاج مريضنا بالإشعاع أو المواد الكيماوية، ولا بدَّ من الجراحة؛ التي إذا شملت هذه

المنطقة سيصبح أخرسَ بلا عودة، وليس هذا هو الضرر الأكبر، وإنما العبث بهذه المنطقة قد يؤدي به إلى البلاهة، وفقدان التفكير المنطقي، والتحكُّم في تصرفاته بشكل سليم، فما رأيكم؟

بمنتهى الضجر ردَّ أصغر الموجودين سنًّا قائلًا:

- بما أن أهله قد وافقوا ووقَّعوا على إقرار إجراء الجراحة ما المانع؟! لا أرى مشكلة في ذلك، بالعكس ستكون فرصة دراسية لنا لاستكشاف الآثار المترتبة على ذلك.

تنحنح رئيس قسم جراحة المخ والأعصاب وقال بوقار موجِّهًا حديثه إلى الشَّاب المتكلم:

- جيلكم هو من ضيَّع الطب ونزع عنه الحكمة التي كان يتَّصف بها، توقَّف يا بني عن التعامل مع المريض على أنه شيءٌ أصم أو جسدٌ فقط، انظر إلى روحه التي هي من أسرار الله وامنحها ما تستحق من التقدير، أعطِها قبسًا من مشاعرك، ولا تتوقف عند حساباتك العقلية فقط.

تنحنح الشاب وتمعَّرت ملامحه بغير رضا عن اللوم الذي ناله أمام الجميع، وعدل هندامه الأنيق المنسَّق بعناية وعاد بظهره للخلف صامتًا وعازمًا على عدم المشاركة بأي حرف، سيعاقبهم بحرمانهم من علمه الذي أهَّله لنيل درجة الدكتوراه في مجال جراحة المخ والأعصاب بدراسة موضوع غير مسبوق، وبسُرعةٍ لم يحقِّقها أحدٌ قبله؛ مما جعله أصغر الموجودين بجلسة هذه المناقشة.

نطق آخر قائلًا:

- الخيار صعب جدًّا بالفعل، إما أن يُترك ليفقده أهله بعد حين، ولكن سيخلف لهم ذكريات طيبة بلا عناء، أو يقضي معهم حينًا من الدهر يصبح عالة عليهم، منهم من سيصبر عليه والله أعلم إلى أيِّ مدى، ومنهم من سيتجنَّبه ويفرُّ منه.

نطق الأخير قائلًا:

- طالما أن الحل له احتمالات مستقبليَّة والضرر غير محسوم بنسبة مائة بالمائة،

أرى أننا يجب علينا خوض الأمر، ونفعل المُتحتِّم ونتركه بعد ذلك لما يريده الله له، فالله أعلم قد يحدث ما يفوق حساباتنا جميعًا.

نظر د. سعداوي نحو الأنثى الوحيدة التي تجلس معهم في ركنٍ قصيٍّ قائلًا:

- وأنتِ ما رأيك يا د. شيماء؟

ابتسمت شيماء بتقدير لاهتمامه بسماع رأيها وقالت:

- من واقع معرفتي بك يا د. محمد أرى أنك قد اتَّخذت قرارك، واستطلاعك لنا ليس سوى محاولة لتأكيد صحة ما توصَّلتَ إليه، ولهذا أريد سماع رأيك أولًا ثم أعلِّق عليه.

ابتسم سعداوي وقال:

- نحن بالفعل أعلمنا أهله بكل الأضرار المحتملة، وقد طالبوا بالجراحة حتى لا يُوصمون بالتقصير، وقالوا أنهم على استعدادٍ للتعامل مع ما سيحدث أيًّا كان، وبهذا فقد أدَّينا ما علينا من واجبات أخلاقية نحوه ونحوهم، وأثناء الجراحة ومع الاستكشاف قد نجد ما يُخالف توقُّعاتنا بالفعل، وكم حدث هذا من قبل؛ لذا وبما أن عُمْر المريض سيكون محسومًا، سواء قبل الجراحة أو بعدها؛ لأنه حتى في حال نجاحها لا يمكن أن نقول بأنه سيعيش عمرًا مديدًا، فما المانع من إجرائها؟ وقد يمنحنا هو نقطةً مضيئةً تنير لمريض بعده درب الخلاص؟

نطق الطبيب الشاب الحانق بسُرعةٍ قائلًا:

- هذا ما أردتُ بالضَّبط، دراسته ستنفعنا في المستقبل وسينفع مرضى آخرين.

نظر رئيس القسم نحوه بلوم ولم ينطق، في حين قالت شيماء بصوتٍ خفيضٍ موجِّهة حديثها لسعداوي:

- وأنا أتَّفق معك تمامًا.

نظر سعداوي نحو رئيس القسم منتظرًا رده، والذي اعتدل بكرسيه وقال بوقار:

- طالما أنك قد راجعت فحوصه التي تؤكد عدم وجود مخاطر تودي بحياة المريض أثناء الجراحة، وبما أن أهله على علم بذلك وقد تأهلوا له، وقالوا بأنهم على استعداد لمواجهة الناتج عن الجراحة، تخيَّر فريقك وتوكَّل على الله، ولكن كُنتُ أتمنَّى أن يكون الخيار للمريض نفسه، لولا أنه سبقنا بمفارقة الوعي قبل التشخيص الكامل لمرضه.

*****

بعد يومٍ عصيبٍ ضجَّ بالكثير من الحالات المرضيَّة المتأخِّرة، استقلَّت شيماء سيارتها الصغيرة الأنيقة ذات اللون الأحمر اللامع؛ والتي فور دوران محركها انطلق صوت الشيخ المنشاوي بداخلها ليصدح بصوته المميَّز والمعبَّق بخشوع تستشعره يلامس شغاف قلبها، وانطلقت بهدوئها المعتاد مجتازة أكثر من ميدان مزدحم دون أن يعكر صفوها كل محاولات الاقتحام والتضييق عليها بالطريق من مختلف الكائنات التي تتسابق حولها في صراعٍ محمومٍ لكسب دقائق يضيِّعون أضعاف أضعافها في الكثير من التَّوافه بحياتهم.

ما إن ولجت مسكنها ذا الإضاءة الخافتة المحببة إليها حتى نزعت حجابها لتضعه بعناية على المشجب المجاور للباب، حيث اعتادت أن تسكنه به تيسيرًا لارتدائه عند مجيء من ترى وجوب ارتدائه أمامه، وبهدوئها التام وبمنتهى الأناة نزعت حذاءها لتصُفه بمحازاة دقيقة بجوار رفاقه داخل خزانته الخشبية الأنيقة، استكلمت رحلة استبدال ملبسها، وتوقفت حينًا أمام المرآة متطلعة لبياض وجهها الناصع، ودلَّكت بإصبعها تجعيدة خفيفة عند ملتقى شفتها جهة اليمين مرتسمة مع حركة هذه المنطقة عند الابتسام، وخللت بأصابعها شعرها الأسود الناعم الطويل، والذي تعتني به عنايةً خاصَّةً، ولم تَغِب عنها عدد الشعيرات البيض التي تحفظ موضعها وعددها جيدًا، تنهدت تنهيدةً عميقةً وحارَّةً وهي تُطالع بقية ملامح وجهها الدَّقيقة والرَّقيقة، والتي يُجمع كل من رآها على أنها تتصف بجمالٍ من نوعٍ خاصٍّ، جمال هادئ يتناسق فيه كل ملمح مع الآخر ليكمل بعضه بعضًا، مُعطيًا انطباعًا مريحًا جذَّابًا عند رؤيته.

تجاهلت نداء معدتها الخاوية منذ إفطارها القليل صباحًا وأخرجت مفكرتها الوردية من درجها الخاص لتخطَّ فيها حدثًا جديدًا وقع اليوم ويستحق التدوين.

وللمرة الألف تفتح صفحتها الأولى لتقرأ الجملة المفتتحة بها، لتنطلق معها عبر الأَسْطُر والكلمات متجاهلةً الكون من حولها، ومنغمسةً فيها بكل أحداثها ومشاعرها التي تجترُّها معها.

*****

مفكِّرة شيماء:

((لأول مرة أمسك بالقلم لأخطَّ به بعضًا من مكنون نفسي، وأمنح الورقَ جزءًا من ذاتي، وأرسمُ بالحبر ظلًّا لكياني، وذلك عملًا بنصيحة صديقتي الأثيرة والحبيبة لمى، سأرى عَقِبَ هذه الجلسة هل حقًّا سيتكفَّل القلم بإفراغ ما يعتمل به من شحنات ومشاعر فائقة مع حبره المسكوب أم لا.

كما تعلمت في دراستي أن أيَّ مكتوب لا بدَّ له من مفتتحٍ ومقدمةٍ، انتهينا من المفتتح فلنذهب سويًّا إلى المقدمة، أنا شيماء عبد العزيز الدندراوي، مشروع طبيبة بالمستقبل القريب إن شاء الله، وعلى نقيض أخي خالد؛ والذي على الرغم من تفوقه ونبوغه في علوم الهندسة فإنه يثير ضجةً كبرى حيثما حلَّ، أحب أنا الهدوء التَّامَّ والنظامَ الشديد، وترتيب خطواتي، ورسم كل يوم مقبلٍ لي بخطط لا يمكن أن أتخلَّف عن تنفيذها، لهذا كان من الطبيعي مع الذَّكاء المتوارث في عائلتنا أن التحقَ بكلية الطب، وأن يكون تقديري هو الامتياز في كل السنوات، حتى هذه السنة التي بدأت الكتابة فيها وهي السنة الخامسة لي بكلية الطب، أبي كان موظفًا بالشهر العقاري حتى أُحِيل للمعاش، ولأنه يرى الجلوس في المنزل بلا عمل من شِيَمِ النِّساء؛ تعاقد للعمل مع إحدى الشركات الخاصة للعمل محاسبٍ بها، ولفرط حركته ونشاطه حتمًا سيخدعك مظهره الذي لا يوحي أبدًا بسنه المقترب من السبعين الآن، أجاد هو وأمي تربيتنا رغم اختلاف طباعنا ومشاربنا أنا وخالد، الأم الهادئة التي فضَّلت البقاء بالمنزل للاعتناء بتربية أولادها، وتركت مهنة التدريس عندما رُزقت بخالد بعد عامين من زواجها، تعلَّمتُ منها الاهتمام بأدقِّ التفاصيل، حتى وإن لم يلحظها الآخرون، ولا

أنسى مقولتها لي عقب عيد ميلاد خالد العشرين، وكُنتُ وقتها في الثامنة عشر من عمري، في هذا الحفل كُنتُ أعمل معها على قدمٍ وساقٍ لتزيين الكعكة الكبيرة وزرع الشمع بها، ولكنَّها نظرت بغير رضا إلى اصطفاف الشمعات العشرين وقالت لي بأن هُنالكَ انحرافًا ضئيلًا بين شمعتين منهما على أطراف الكعكة، قلتُ لها ضاحكة:

- هل تتوقعين حقًّا أن هُنالكَ من سيلحظ ذلك؟

فعاجلتني بجملتها التي ظلت معي نبراسًا لأمدٍ طويلٍ حين قالت:

- لا تنتظري المكافأة بمدح الآخرين في إنجازك، رضاؤك الذاتي وإدراكُك للجهد الحقيقي الذي وصل بعملك للصورة النهائية المميزة به، هو مكافأة من الله يمنحك بها سلامًا داخليًّا يغنيك عمَّن سواه.

دفء المنزل مع أب حنون متفهم لكل مشاعرك ومتطلباتك النَّفسية قبل المادية، وأمٍّ لا تغيب عنها شاردة، يحسُدُها أبرعُ المنظرين لدقتها هذه، كل ذلك منحني سلامًا نفسيًّا كان هو الدافع الطبيعي للتفوق والشعور الدائم بالاستقرار.

حتى عامي الخامس بكلية الطب كُنتُ كبقية البشر، يسعدني الإطراء والمدح وقد أنتظره عقب إنجاز يستوجب ذلك، ولكن لم يمثِّل عندي فارقًا جنس المادح، ربَّما الانجذاب الفطري بين الجنسين تأخَّر عندي ولكن ذلك لسبب مهم جدًّا وهو التشبُّع التامُّ من كلِّ متطلباته في المنزل، مع أبٍ يحيطك بعناية فائقة، ويفيض عليكِ من حنانه الجارف، ومع أخٍ مشاكسٍ ولكن يمنحك سعادة من نوعٍ خاصٍّ بمشاركتك في كل أنشطته وفُسَحِهِ وألاعيبه، فماذا ينقصني لأبحث عنه عند الآخرين؟

حتى وقعت الواقعة صباح اليوم ليختلَّ ميزاني وليضطربَ دربي لأسلك طريقًا جديدًا ما فكرت ولا خطر ببالي يومًا الولوج إليه، فها أنا أمسك بقلمٍ لأخاطب الورق من خلاله وأبثُّه مشاعري لعجزي عن فعلها مع أحد أفراد عائلتي.

صباح اليوم وبينما نحن في الدرس العملي بقسم أمراض النساء والتوليد، كنَّا

نقف بجوار سرير لسيدة ريفية أربعينية تتوسط فراشها بثوبها الفضفاض قاتم اللون، جالسة بصمت عجيب، ويحمل وجهها ثباتًا مدهشًا، فلم تختلج ملامحها ولو لوهلةٍ سريعةٍ، وارتسمت بلوحة لا يمكنك تفسيرها أبدًا، ربَّما لو تمَّ تصويرُها ونشرها بالصحف ورآها أحد المحللين لاحتسبها المنافس الحقيقي للموناليزا من حيث استنباط الكثير منها.

بمنتهى الجدية ظلَّ المحاضر يشرح لنا وجوب استئصال رحمها المثقل بورمٍ ليفيٍّ متغولٍ ومتوغّلٍ لدرجة لا يمكن التعامل معها إلا بحرمانها من رحمها، وبعد انتهاء الشرح بدأت مرحلة كيفية تسجيل التاريخ المرضي لها بطريقة أكاديمية سليمة، الجميع تعامَل مع البيانات المأخوذة منها بنفس طريقة تعامل الحاسب مع أي مدخلات له، كلمات جافَّة سريعة بإجابات محدَّدة يتم كتابتها في مواضعها اللائقة بها في الاستمارة المخصصة لذلك، حتى أن الجميع تجاوز نقطة أنها لم ترزق بأولاد بشكل خاطف لعدم أهميتها بالنسبة لهم، في حين توقفتُ أنا عندها وأدركتُ حينها سرَّ هذه الملامح العجيبة، واستطعتُ فكَّ شفرتها، لقد كانت هذه السيدة تواجه حكم الإعدام، فمهما قيل لها بأنها عاقر ولا فرصة لها في الإنجاب سيظل الأملُ حبيسَ صدرها حتى خروج الروح منها، قد تلجأ لألاعيب الجان وفك أعمال السحر، قد تفعل ما يمكنها وتسعى إلى ما لا يمكنها لإدراك هذا الأمل، أما أن يتم محوُ كل ذلك بجَرَّة قلم، فقد قتلتَ بداخلها سرَّوجودها، عند هذه النُّقطة توقفتُ وغِبتُ عمَّا يدور حولي، وبينما يلتهم زملائي بقية المعلومات التي تنساب منها مغلَّفة بألم لا يدركون مدى عمقه، انغمستُ متأملة وجهها، متلمِّسة باطنها الذي تُجاهِد لإخفائه، ورأسي ترسم ألف سيناريو لواقعها الذي تعيش فيه.

قد تكون نظرة عُلوية انتابتني وقتها حينما استشعرت تفرُّدي بهذا الإحساس الإنساني، بينما البقية غافلون لا يهمهم إلا تحصيل درسهم بما يؤهلهم للنجاح آخر العام، ولا يشغلهم هذا الكائن الحي الذي يموجُ بالكثير ويتمزَّق قلبه بما لا يدركون،

انتهى الدرس وفي قلبي غُصَّةٌ كبيرةٌ من أجل هذه السيدة، وبعد ابتعادنا عن القاعة انتهتُ لنسياني حقيبتي، وذلك بسبب افتراس مشاعري لي، دخلتُ القاعة مسرعةً وكدتُ أصطدم به لولا تمكُّني العسير من التحكم في اندفاعي، وعانق ارتباكي تردُّدَه ومفاجأته بي أمامه، ولم تَغِبْ عن عيني في نظرة خاطفة تلك الدموع المتحجِّرة التي تألقت بمُقْلتيه، تجاوزنا الموقف بسرعةٍ وبكلمات مبهمة من كلينا، لا تدري هل هي اعتذار أم شرح للموقف؟! وانتزعت بصري من مجاله مطلقةً إيَّاه تجاه السيدة التي رأيتُها تدسُّ -بسُرعةٍ- أسفل وسادتها شيئًا ما، ذهبت إليها وسط نظراتها المتسائلة لأجدَ حقيبتي كما هي أسفل السرير بالموقع الذي كُنتُ أقف به، ولست أدري لماذا توجَّهتُ إليها بالسؤال إن كانت في حاجة إلى شيء، لترد عليَّ بحمدها لله وشكرها لي، والتقطت عيناي طرف ما كانت تُسرع بإخفائه أسفل وسادتها وربما لتسرُّعها أو ارتباكها لم تُجِد ذلك؛ فكان جزءٌ كبيرٌ من الورقة المالية فئة الخمسين جنيهًا ظاهرًا بشكل واضح، ولأول مرة يرتجُّ وجداني بهذه الصورة، لقد ظننتُ أن مجرد تعاطفي وتأثُّري بحالها هو منتهى السموِّ وسط كائنات تتفاعل في محيط صالحها الخاص، ظننتُ أني من المصطفين الأخيار لتميزي بينهم، وأني الوحيدة التي ينبض قلبها بمشاعر جميلة تتفاعل مع ما أغشيت أبصارهم عنه، ولكن .. ماذا كان مردود ذلك؟ .. وبأي شيء نفعتُ هذه المنكوبة؟! هل أفادها تعاطفي بشيء؟! .. هل منحها حزني لأجلها مخرجًا أو مواساةً؟

وها هي الصدفة تكشف لي أن الاصطفاء الذي ميَّزتُ نفسي به كان دونَ الواجب بكثير، فهناك من اهتزَّ وجدانه واستُثيرتْ دموعه، وتفاعلَ مع الأمر بإيجابيةٍ حقيقيةٍ وأنفق مما يحب، ولم يتوقف عند مرحلة استنزاف المشاعر فقط؛ ولذا مددتُ يدي لأخرج العشرين جنيهًا المتبقية بحقيبتي، عازمة منحها إياها لتصدمني بمفاجأة تُظهِر لي مدى سطحيتي، إن كانت هذه المنكوبة مصيبتها هي فقدان الأمل في الإنجاب فهل منحها بعض المال سينسيها ذلك؟!

ما طريقة التعامل السليمة مع التهاب بكتيري يسبب ألمًا شديدًا؟

هل إعطاء المُسكن الذي يخففُ هذا الألم حينًا -ربما كان قصيرًا- هو العلاج السليم؟ أم التعامل مع السبب نفسه، والذهاب لمحاربة الميكروب الذي نتجت عنه كل هذه الاضطرابات؟

فعندما حاولت منحها ذلك المال رفضتْ بعنفٍ، وعندما سألتُها مستنكرة لماذا تقبله من غيري وترفضه مني، جاوبتني بالحقيقة التي كان يجبُ أن أسعى لها من البداية، فذلك الفارس دلَّها على عيادة أستاذ لا يشقُّ له غبار في جراحات أمراض النساء، ويمكنه علاج ذلك الورم الليفي دون استئصال أعز ما تملك، ومنحها قيمة الكشف عنده، ولم تقبل منه مليمًا زائدًا عن ذلك، ولهذا رفضتْ ما قدمتُ إليها.

وكان ذلك بداية وقوع محمد سعداوي في بؤرة ناظريَّ، زميل دراستي المتميز علمًا وخُلقًا)).

ارتفع صوت رنين الجوال ليقطع على شيماء انغماسها في ذكرياتها البعيدة، وفور رؤيتها لاسم المتصل ابتسمت بودٍّ وطَوَتْ مفكرتَها جانبًا وتوسَّدت هاتفها مستلقية على فراشها، لتجيبَ المتصل بمشاعرها قبل كلماتها.

*****

أضاء عبد الكريم مصباح الصالة الواسعة، وتطلَّع بمهل إلى المقاعد الكثيرة المتراصَّة على أطرافها بانتظامٍ دقيقٍ، وما زالت بقايا جلسات انتظار الأمس متناثرة فوقها وحولها، بعض المناديل الورقية وأغلفة المأكولات السريعة، امتعض وجهه لأنه سيمرُّ عليها لجَمْعِها، وتنظيف الصالة وبقية غرف العيادة بالكامل قبل مواعيد العمل الرسميَّة، حتى يحافظ على تألقها المميزة به دائمًا، ما إن انتهى من مهمته التي يراها مقيتة حتى أعدَّ لنفسه قهوته المميزة برائحتها المعبَّقة والمركَّزة، وفتح النَّافذة المجاورة له متحمِّلًا تيار الهواء البارد المندفع بسُرعةٍ منها في سبيل استكمال متعته بإشعال سيجارته ذات الرائحة النفاذة، امتزجت رشفاته من القهوة مع أنفاس سيجارته التي يسحبها باستمتاع شديد، ولكن قطع عليه تلذُّذه هذا رنين هاتفه الذي طالع شاشته فوجده يومض باسم زوجته، الذي ما إن رآه حتى ضغط زرًّا جعل الهاتف صامتًا

رغم استمرار الرنين، واستدار بكرسيه كأنما يفرُّ منها هي شخصيًّا ومن إزعاجها له، ولكن يبدو أنه كان مقدرٌ له انتهاك هذه اللحظة التي كان يرنو إليها، فقد طرق مسامعه صوت بوق السيارة المميز، فانتفض فَزِعًا مُطفئًا سيجارته، ومُلقيًا بها عبر النافذة، وأخذ يصارع آثارها المتأرجحة في سحابات ضعيفة عبر سماء المكان، ولم يجد بدًّا من الإسراع إلى مخزنه الخاص بالداخل وإخراج معطر الجو ليطلق منه زَخَّات متتالية نجحت بالفعل في صرع كل أثرٍ لتدخينه، فأحكَم غلق النافذة، وأخرج مصحفًا كبيرًا من دُرْجه، وعدل نظارته، وتعرجت جبهته وهو يهز رأسَه وصوته يصدح بآيات القرآن التي يترنم بها، وكما توقَّع تمامًا، فبعد ثوانٍ كان دكتور محمد سعداوي بمنتصف الصالة منتظرًا وقوفه عند آخر كلمة بالآية ليلقي عليه السلام، فقام راسمًا على وجهه ابتسامة التهمت ثلثي وجهه، وعينه معلَّقة بقوة بتلك الحقيبة السوداء، والتي نادرًا ما يصحبها سعداوي معه عند مجيئه لعيادته الخاصة تلك، والذي على غير العادة لم يسأله عن أحواله وأسرته وأبنائه واندفع إلى مكتبه بسُرعةٍ فور تلقِّيه رد السلام من عبد الكريم قائلًا له في جملة مقتضبة:

- لا تُدْخِل أحدًا حتى أخبرك باستعدادي.

مسح عبد الكريم جبهته متعجبًا من سلوك سعداوي غير المعتاد، ولهفته للاختلاء بنفسه وإلقاء الأمر دون انتظار حتى سماع كلمات الانصياع له، وهزَّ رأسه مُتفهمًا عندما وصل استنتاجه لما تحويه تلك الحقيبة السوداء، فحتمًا تعج بالنقود ذات الفئات الكبيرة، وربَّما كان هذا سبب مجيء سعداوي مبكرًا جدًّا اليوم، فجدوله قد تغيَّر بالمرور على البنك والمجيء بهذه الثروة التي ربَّما لو حاز نصفها لتغيَّر حاله تمامًا، في حين أنها قد تكون مصروف يد زوجته للأسبوع القادم؛

لذا لن يفاجئه وهو منشغل الآن بِعَدِّ نقوده، والتي لو وقعت منه إحداها على الأرض لتكاسل عن الانحناء لالتقاطها، في حين أنها قد تكفيه للإنفاق على بيته لأيام، سينتظر حتى تقرَّ عينه بعطر أمواله والاكتفاء من بريقها، ثم السماح له بالحركة ودوران عجلة العمل بالعيادة التي بدأ ظهور روَّادها الآن.

وبالداخل كانت المكالمة بين د. سعداوي وزوجته قد بدأت فور ردِّها عليه مؤنّبةً إيَّاهُ لتغيُّبه عن رفقتها بغداء اليوم، ليردَّ عليها قائلًا:

- تعلمين جيدًا أنه لا مذاق للطعام في فمي من دونك؛ ولذا لن أتأخر عن العشاء معك.

- لن أمسَّ الطعام حتى عودتك.

ضحك قائلًا:

- لا مانع من لقيمات يقمن صلبك حتى تخف وطأةُ التأنيب عن صدري قليلًا.

قالت بدلالٍ:

- وكأنك تشعر به حقًّا، لو مسَّك بمثل ما تقول لكُنتَ معي الآن، فأعمالك المهمة لا نهائية، ولو استسلمت لها ستكتشف أن عمرك انقضى أسيرها، وقد فاتك أبهى ما كان يجب عليك الانشغال به.

- أنتِ أبهى ما في حياتي ولا يسبقكِ في الأهمية شيءٌ.

- لا تصدق ذلك المأفون الذي أقنعك بأنَّ عقول النساء يمكن خداعها بالكلام المعسول.

قهقه بقوةٍ وقال:

- تعلمين علم اليقين صدقَ كلماتي، ولكني لن أطيعَ شيطانك في صبِّ المزيد منها.

طرق سمعه ضحكتها التي تراقَص على نغماتها قلبه سعادةً وهي تقول:

- حسنًا فلتكن أنت مع أبالستك التي تشغلك عني.

انتهت المكالمة بكلمات الحب المتبادلة بينهما، دقات قلبه تتقافز سعادةً وتتباهى سموًّا وطربًا في حديقةٍ غنَّاء من المشاعر الفيَّاضة نحوها، وقد أَسَرَتْهُ بنبرات صوتها الشجيَّة التي يستقى منها رحيقًا يحلو به طعمُ الحياة، وعلى عكس المتوقَّع ما إن أغلق هاتفه ووضعه جانبًا حتَّى ظللت ملامحه غيومُ الهمِّ وأمارات الأسى، ومدَّ يده ليخرج

من حقيبته السوداء الكثير من التقارير الطبية التي ذهب للحصول عليها بنفسه، وما إن علم ما بها حتى فضَّل الاختلاء قليلًا برفقتها بعيدًا عن المنزل، وبدأ في مطالعتها لتتسع عيناه دهشةً بأكثر مما كانت عندما علم بالتشخيص المبدئي فور قراءتها بسُرعةٍ أول مرة.

فقد كانت اللوكيميا في أشرس حالاتها، حتى أنه يتعجب كيف تأخر ظهور أماراتها إلى بلوغها هذا الحد!

*****

مفكِّرة شيماء:

((في الأيام التالية أصبحت الصورة بعينيَّ مختلفة المجال تمامًا، فبعد أن كان همِّي الأول - وقت دلوف قاعة المحاضرات - البحث في المدرج عن صديقتي الأثيرة «لمى»، وفور رؤيتها يُغشى بصري عمَّا سواها حتى أصِلَ إليها، وبمجرد الجلوس معها ننطلقُ في الحديث مستعرضين ما فاتنا من أحداث تفردت بها كل منَّا منذ الافتراق، أصبح يجاور « لمى « في ذلك المجال « محمد سعداوي « فلأول مرة ألحظ جلسته المميزة والثابتة في مقدمة المدرج، وأخيرًا علمتُ مَن هو صاحب أكثر الأسئلة الموجهة للمحاضرين، بعد أن كان ما يهمني هو الصَّوت النَّاطق بها وفقط، دون أي فضول لمعرفة هُوية ناطقها، ولأول مرة أجد مقارِنًا لأخي خالد، بدأت تتوارد لذهني مشاكستي له حين مساءلتي عن أي الألوان اتِّساقًا في ملبسه، فسعداوي الأنيق المتألق دومًا بلباسه الهادئ المنسق بعناية جدًّا وبألوانه التي أحسده على حسن اختياره لتوافقها، هل كل ذلك لمجرد موقفٍ واحدٍ حدث منه؟!

من المفترض -حسب مقدمتي- أنَّ لدي ثباتًا انفعاليًّا وهدوءًا وتشبعًا عاطفي، ما الجديد الذي أثار انتباهي وجعلني حتَّى أتحرَّج من التحدُّث عنه؟!

لا أدري .. فكما تمر كل يوم بشارعك المليء بلافتات الأطباء والشِّركات والمتاجر دون أن تعبأ بها، وفجأة تلمع إحداهن أمامك بلا مقدمات، وكلما مررتُ عليها تمعنتُ في تفاصيلها، حدث معي ذلك الاهتمام الذي ينقضي فور الانصراف من بؤرة تواجده.

وعند ظهور نتيجة الفرقة الخامسة كانت درجاتنا متقاربة بشكلٍ عجيبٍ، الفارق بيني وبينه في طب الأطفال ثلاث درجات لصالحي، وفي أمراض النساء والتوليد أربع درجات لصالحه، وبهذا فقد فاقني بدرجة رغم توحدنا في تقدير الامتياز سويًّا.

في السنة السادسة والنهائية بكلية الطب لا أدري هل هو توافق فعلي أم إيحاء مصدره الإعجاب المستتر به، فقد كانت دراسة مادة الجراحة من أمتع وأروع ما درسنا بالطب منذ عامنا الأول بهذه الكلية المُنهِكة. وكان طبيعيٌّ وتلقائيٌّ تخرُّجنا بعدها لنكون من أوائل الدُّفعة.

بسبب تفوقي الدائم أثناء الدراسة ابتعدتْ عني مشكلةٌ بدأت بوادِرُها في الأفقِ عَقِبَ تخرُّجي، ألا وهي «متى الزواج؟!».

كان ظن أبي هو التركيز وفقط في الدراسة للمحافظة على تمام التفوق حتى النِّهاية، وأمي مثلها مثل كل سيِّدة منزل مصرية عتيقة، لو عادت إليها ابنتها بحلولٍ لكل المشاكل الكونية وتألقت عالميًّا وغزت الكواكب، فهي لم تفعل شيئًا في حياتها ما دامت لم تسكن «بيت العَدَلْ»!

ولكن وجود أبي أراحني من عنت مواجهات كثيرة، ولم أعلم بكثرة من تقدم لخطبتي حينها إلا مؤخَّرًا، ولأول مرة تُثار القضية أمامي بأن وقت المدارسة قد انتهى وحصدنا التفوق المأمول والمكانة المستهدفة فلنكمل نصف ديننا!!

لست أدري عن أي نصف في الدين يتحدثون؟! فالحمد لله أحافظ قدر إمكاني على كل متطلبات ديني، فهل بعد كل ذلك أكتشف أني لا أتحرك إلا في حدود النصف منه فقط؟!

كانت أمي تتحدث بسُرعةٍ مقارنةً بيني وبين زميلاتي اللاتي ولدن في عامي وأغلبهن يحملن أولادهن ويتنعَّمون في رياضهم.

حاولت قدر جهدي أن أوضِّح لها أن السنوات الأولى في ممارسة الطب تستلزم جهدًا فائقًا كي أكون طبيبةً بارعةً بالفعل، فميدان الدراسة غير كافٍ، ولا بدَّ وأن نخوض معه درب التطبيق، ولكن حجتها كانت قويةً هذه المرة، ورأيت العجز في ملامح

أبي عن مواجهتها عندما قالت بأن الخطبة لن تعطلني عن أعمالي المرهقة التي أتعلل بها، ولن تشغل بالي أو تفقدني تركيزي عن تحصيل شيء كما قيل عن المذاكرة فيما سبق.

وأخيرًا تربعت على عرشي وفُتح الباب لمجيء الرجال يعرضون أنفسهم عليَّ لأختار منهم من أراه متوافقًا أو متناسبًا مع عقلي وحياتي المستقبلية، سألتني وقتها صديقتي « لمى « مستنكرةً:

- هل يعقل أن تتزوجي زواج صالونات؟!

فقلت لها باسمة:

- أراه أفضل من زواج الشوارع، فكل العقول المهتمة بك تشاركك دراسة اتخاذ القرار المصيري، وحكمك العقلي يسبق القلبي فلا يُغشى بصرك عن كثير من الحقائق.

وجاء الأول .. وغالبًا تكون التجربة الأولى في كل شيء لها مذاقها الخاص ورونقها الذي يجعلنا فيما بعد نتمنَّى لو تعود لنخوضها بشكل أفضل، ولهذا ما زالت تحفر معالمها في وجداني، ولا يمكن نسيان أي شاردة أو واردة منها.

صديقة أمي ابنها يعمل بأرض الحجاز بعد حصوله على ماجستير المسالك البولية، وسيم كما يبدو بصورته، ميسور ماليًا، يكبرني بخمس سنوات، أسرته معروفة بالنسبة لأمي وتشيد بهم جميعًا وبخلقه منذ كان صغيرًا.

كالعادة تألق البيت وتمَّ تجهيز ما سيتم تقديمه، مع الإشادة ببراعتي في إعداد المأكولات والمشروبات رغم نسياني لموضع المطبخ أحيانًا كثيرةً!

وبعد المقدمات الشهيرة والتعارف والأسئلة المعتادة جاء السؤال الذي أجهض كل شيء؛ فقد سألني قائلًا:

- بأي نيابة سوف تلتحقين إن شاء الله؟

بكل تلقائية رددتُ قائلة:

- جراحة المخ والأعصاب.

تقوس حاجباه بشكل كاد يضحكني وهتف قائلًا:

- نعم!! لا طبعًا.

كانت الدهشة من نصيبي هذه المرة وأنا أُسائله:

- ما بها جراحة المخ والأعصاب؟!

قال بمنتهى الحماس:

- تخصصٌ لا يصلح للنساء أبدًا؛ عمل شاق وجهد كبير ولا يتناسب مع رعايتك لبيتك فيما بعد، قسم التحاليل أو الجلدية أراه هو الأنسب لك جدًّا.

وكان رفضي لكلامه وتمسكي بما أحب والإصرار على النجاح والتميز فيه سببًا في رسم موقفه النهائي على ملامح وجهه التي امتعضت وتغضَّنت والتوت، ولم تُجدِ محاولات أمي الواهية في نثر بعض الآمال نحو تغيير موقفي في محو ما التصق بوجهه من علامات تظهر ما استقر بوجدانه من فشل هذه الزيجة.

ولأول مرة بعد هذه المقابلة أنظر نحو محمد سعداوي نظرة جديدة،

نظرة بها رجاء مستتر تهمس في حياء قائلة:

- ليتك تكون أنت صاحب اللقاء التالي)).

*****

كعادته ضغط على زرِّ الجرس ضغطةً واحدةً وفتح الباب بمفتاحه الخاص، وكعادتها كانت تقف خلفه كأنَّما كانت تنتظره هنا منذ أمد، توقف لينظر إليها مبتسمًا وهي تتفحص ملامحه، وتقرأ ما خلف ابتسامته الكسيحة؛ التي كان جليًّا فيها أنها تُخفي جبالًا من الهموم؛ ولذا نطقت بأسى قائلة:

- نتيجة التحاليل سيئة للغاية .. أليس كذلك؟

لم يحاول الهروب منها ليقينه بقدرتها على كشف كل أكاذيبه، وأخيرًا أطلق سراح دموعه التي ظل يقاومها منذ مطالعته لهذه النتائج بالعيادة، وبتلقائيةٍ مباشرةٍ ألقى بنفسه في أحضانها ليضمَّها إليه بقوة، عسى أن ينهل منه كل ما يفتقد إليه، وعلا نشيجه وهو يهتز بقوة بين يديها، بينما لزمت هي الصمت، وسالت دموعها الخرساء على وجنتيها وضمَّته إليها أكثر مما كان، وبعد ردح من الزمن نطقت قائلة:

- الحمد لله .. قُل لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا.

هز رأسه بتعجب قائلًا:

- تُرى ما السر في أن أغلب الأطباء الماهرين في تخصصاتهم يبتليهم الله دومًا في أنفسهم وذويهم بأحد الأمراض التي برعوا فيها؟!

تحاملت لصنع ابتسامة شاحبة قائلة:

- لتعلموا أن فوق كل ذي علمٍ عليم.

*****

شتان بين مشاهدتك لسباح يصارع أمواج البحر، وبين انغماسك أنت في معاركته، في الأولى ستزن الأمور بعقلك وتحدد نقاط البراعة وما ينتقص إليه من مهارات لكي ينتصر في صراعه، أما في الثانية ستجد الطعم المالح يقتحم ذائقتك، والهجوم المتكرر بارتفاع وانخفاض وَكَرٍّ وَفَرٍّ، ستجد كل ذلك يصيبك بارتباك يفقدك أيسر مبادئ التفكير المنطقي، ويصبح كلُّ أملك النجاة لا الفوز، كم تعامل سعداوي مع مرضى الأورام من قبل، ولكن كانت خلفيته العلمية وميزان العقل لديه هو المتحكم الأول في كل قرارته وأفعاله، وكان بارعًا في أن يلجم مشاعره لتقف على الشاطئ دون الانغماس في الصراع، فلا يصدر منه أي قرارٍ عاطفيٍّ يكون عاجله فيه الرحمة، وعاقبته فيه الفشل ومضاعفة الآلام، كم رأى المرضى وهم يكتوون بآلام العلاج الكيميائي قبيل أو بعد الجراحة، ولم تختلج به ذرَّةٌ؛ لعلمه بأن هذه الآلام هي

السبيل إلى النجاة، فلو استجاب لأحدهم ذات يوم بإيقاف سريان المحلول إلى دمائه لأنه لا يتحمل آلامه فقد حَكَمَ عليه بالإعدام.

أما الآن .. فالمريض غير اعتيادي أبدًا، إنها حب عمره ووليفته التي لا يرى الحياة من دونها، إنها زوجته الساكنة الأبدية بقلبه.

هنا يصبح الألم ساريًا في عروقه هو قبل أن يَمَسها، فهل سيتحمله؟!

هل سيحافظ على حساباته العقلية؟ أم ستجرفه مشاعره بعيدًا عنها؟

كانت ممددة أمامه باستكانةٍ تامةٍ بملامح يعلم كم تصارع لتخفي عنه العواصف التي تتصارع بداخلها، انسابت النُّقطة الأولى للمحلول الكبير الذي اختلطت به العديد من العقاقير الكيميائية لتصل إلى وريدها مقتحمة جيوشًا من الخلايا السرطانية التي افترست أغلب كرات الدم البيضاء لديها؛ ليبدأ الصراع الذي يعلم مدى آثاره المدمرة، بل وموقن بأن هذا العلاج ما هو إلا محاولة لإبقاء المريض مدة أطول على قيد الحياة، ولكن النهاية محسومة حتمًا.

*****

مفكِّرة شيماء:

((لست أدري مدى صحَّة المقولة بأن هُنالكَ طاقةً نفسيةً قد تحرك الأحداث نحو النُّقطة التي تريدها كلما اشتدت رغبتك فيها وتعلقت آمالك بها وانغمس فكرك معها، حدث معي موقفان عجيبان ربَّما يؤيدان ذلك، الأول كُنتُ قد اتفقت مع لمى على المقابلة في إجازة نصف العام بمعرض الكتاب، واتفقنا على كل شيء من توقيتٍ وموضع الالتقاء به، ولشغفي بهذا اللقاء وقتها لأنه سيكون في ندوة أحد أشهر الكُتَّاب بظهوره الأول وسط قرَّائه ومعجبيه، طوال الليل كُنتُ أرسم في ذهني شكل الحفل وتنظيمه وموضعي به على الطرف اليمين بالمقعد الثاني، وفي مقابلتنا يجلس الكاتب بوقاره وصوته الهادئ وبسمته الرصينة متحدثًا عن مؤلفاته أو مجيبًا على أسئلة وتعليقات الحضور، ولكن –دومًا- كان يشاركه الصورة ظهور سعداوي ضمن

المنظمين للحفل، يقف بالخلف عاقدًا ساعديه أمام صدره متأنقًا ومحافظًا على ابتسامته المميزة والشهيرة، ولخمس مرات كلما استحضرتُ صورةَ الندوةِ بخيالي كلما ظهر بها سعداوي بنفس هيئته السابقة؛ وقد كان بالفعل في مفاجأةٍ عجيبةٍ ظلَّت عالقة بخيالي كثيرًا مفجِّرةً الكثير من التساؤلات عن مغزى ذلك.

المرة الثانية كُنتُ مع أمي في يوم جمعة أشاركها التسوق بأحد المجمعات التجارية الكبيرة الذي ضجت إعلاناته عن خصوماته الكبيرة لهذا اليوم، الزِّحام الشديد وحُمَّى الشراء التي أصابت الناس هناك لمجرد أن البضاعة ثمنها بخس، وليس لاحتياجهم إليها دفعت برأسي تساؤلات كثيرة عن فن التسويق ودراساته العالمية التي أصبحت تَسوقُ الناس نحو الإنفاق بجنونٍ على أمور كان مجرد التفكير فيها يحتاج لتمهيدٍ وإعدادٍ ربَّما بالشهور، ولكن أمي تنتمي لهذا الجيل العتيق الذي يعرف هدفه جيدًا، وأعدَّ قائمة بما يريد ويعقد موازنة بين الأسعار هنا وهناك قبل إخراج القرش ثمنًا للبضاعة المُزجاة، وبينما ألاحقها وأساعدها في حمل أثقالها داهمني إحساسٌ غامرٌ بأننا عند قسم البقوليات سوف أجد خالي، لم أَرَهُ منذ عام تقريبًا؛ فبعد تعيينه رئيسًا لقسمٍ كبيرٍ بشركته أصبحت مهاتفته السريعة أقصى ما يمكن الحصول عليه، وبالطبع كان هناك وبالهيئة التي تواردت لذهني تمامًا، انهمرت سخرية لمى مني بقولها «ست الشيخة» وأن قريني قد يكون هو صاحب تسريب الامتحانات لي، وهذا سر تقدمي بالدرجات وتفوقي في نهاية العام.

لهذا أن يكون سعداوي زميلًا لي في المجموعة العملية أثناء سنة الامتياز حتمًا ليست مصادفة عفوية قط.

في الحياة العملية التفاعل والاختلاط مع الزملاء يتجاوز مجرد الإيماءات البعيدة والتلميحات السريعة والتفادي لأي حدثٍ كبيرٍ مثلما كان يحدث معي أثناء الدراسة.

رغم أننا كنا حديثي التخرج، يملؤنا التفاؤل والأمل والثقة، كانت مرحلة التدريب مليئة بالصعوبات الجمَّة، أشدها بالنسبة لي هي النفسية منها، ولهذا لن أنسى أبدًا مشهد ذلك الرجل الأربعيني في أول أسبوع لي باستقبال الطوارئ بالمستشفى.

كان قد مر عليَّ يومان بالقسم الذي لا يكفُّ عن استقبال حالات الإصابة والحوادث، وليلًا كل أنواع الشكوى، المعقول منها والخيالي، والحقيقي منها والوهمي، كُنتُ قد تعلمتُ وقمتُ لأول مرة بتقطيب الجروح وتوصيل ما يُسمَّى بالكانيولا بأوردة المريض، وبينما نحن نسعى كخلية نحلٍ هنا وهناك، كل منَّا يتعرض لنصيبه من الشكاوى؛ هذا لمريض ضغطه مرتفع، وآخر بوله محتبس، وثالث التوت قدمه أسفل منه أثناء سيره فتمزقت أربطته.

وفجأة ضجَّ الاستقبال بصريخٍ وعويلٍ وتجمهرٍ كبيرٍ، فقد كان هُنالكَ حادث سيارة أُصيب فيه ربُّ الأسرة وزوجته وبنتان من بناتهم الثلاث، كالمعتاد تمَّ تصنيفهم بسُرعةٍ لوضع أكثرهم حرجًا على سرير وتمَّ توصيل كل الأجهزة به وبدأت بسُرعةٍ مُدارسة الحالات لمعرفة مدى الإصابات وخطورتها ليبدأ التعامل معها، وبينما أنا خارجة من هذه القاعة لصالة الاستقبال الكبيرة لجلب جهاز ضغط غير الذي فشلت في استخدامه؛ إذا به أمامي ويقول لي بمنتهى الهدوء والأدب:

- لو سمحتِ يا دكتورة .. إني أموت.

توقَّفت لوهلة أمام الجملة التي نطقها ونظرت لهيئته السليمة تمامًا، ووقفته الثابتة وجسده الرياضي وملبسه المهندم، وغلب ظني أنه يعاني من أمرٍ نفسيٍّ، وبالتالي مقارنته بالحادث الذي نحن بصدده لن يكون في صالحه، فأشرتُ نحو غرفة الكشف الفارغة وقلت له:

- تفضل استرح على هذا السرير حتى أعود إليك.

وبعد نصف الساعة عقب الانتهاء من التعامل مع مصابي الحادث وتوزيعهم على الأقسام المختصَّة مثل الأشعة والعظام وما شابه، خرجت إلى الصالة لأمسح عرقًا وهميًّا عن جبهتي بساعدي الأيمن، وتذكرته عندما لمحتُ طيفَه بداخل الغرفة التي دعوته إليها، ولأني وحدي وقتها بالصالة استعنتُ بإحدى الممرضات وتناولتُ السماعة الطبية وذهبت إليه لأجده ممددًا ومسترخيًّا بمنتهى الهدوء فوق السرير،

فتنحنحت وأنا ألقي السلام عليه ولم أتلقَّ منه ردًّا رغم عينيه المفتوحتين بنظرته الثابتة نحو السقف، وكان الهول عندما علمت بأنه قد فارق الحياة!

انسحقت روحي وذهل عقلي ولم أملك سوى وضع كفي على فمي لأمنع صرخةً كبرى، وانهمرت دموعي التي سُلبت وسيلة التحكم فيها وقتها، شعرت بأني قد قتلته، الرجل استغاث بي وتخاذلت عنه، لقد قام بالتشخيص ورفع عني عنت البحث في حالته، ولكني لم أصدقه، تُرى لو كُنتُ استجبت لندائه وتعاملت معه على أنه ذبحة صدرية، أو أزمة قلبية، أو أيًّا كان ما يعاني منه؛ لتغير حال أسرته التي تنتظره وقد غادرها بكامل صحته وأناقته، كيف حال ابنته التي تتوق لحضنه الآن وقد حرمتها منه؟ ماذا عن زوجته التي تحمل قائمة بكثير من المطالب للبيت والأولاد؟ لمن ستعطيها الآن وقد فرطت أنا في حياته وذهب عنهم إلى حيث لا رجعة؟

افترستني الهواجس والأسئلة التي ربَّما لو تعرضت لها في وقت رائق لكان لها عندي أكثر من رد عن الإيمان بالقضاء والقدر والأجل المحدد بالثانية منذ أن كان في رحم أمه، ولكن لأول مرة أدرك معنى المثل الخالد بأن اليد المنغمسة في الماء لن تشابه أبدًا تلك المشتعلة في النار.

حاولت الممرضة تهوين الأمر عليَّ دون أن تدرك ما سبب انهياري، مخبرةً بأنني سوف اعتاد ذلك فيما بعد؛ فحالات الوفاة ستكون كثيرة جدًّا في الاستقبال، حتى أنَّ تشييع الموتى وكتابة تقرير الوفاة سيكون مثل تشخيص صداع نصفي لمريض ووصف العلاج اللازم له، قد يكون حديثها حقًّا لو كان الطبيب قد أوفى بواجبه وأدى ما عليه نحو ذلك المريض؛ لذا لست أدري أين جلست وأخذت أرتجف بشدة ونشيجي بدأ في الارتفاع، حتى ظهر هو، ووسط حوار كبير لم يستوقفني منه سوى جملة نطق بها ربَّما بشكلٍ عشوائيٍّ لعدم معرفته أيضًا بما وراء الخبر؛ ولكنها كانت بلسمًا حقيقيًّا وهدأت من روعي كثيرًا حين قال:

- لو كُنتِ تعلمين علم اليقين أنه كان في طريقه إلى الموت وتكاسلت فأنت مخطئة، أما اجتهادك وسعيك لمن ترينه أكثر استحقاقًا فيندرج تحت قاعدة: للمجتهد أجران إن أصاب، وأجر إن أخطأ، فهوني عليك.

وكان ذلك أول تعامل مباشر مع سعداوي.

*****

هتفت لمى قائلة:

- وماذا كان ردُّك عليه.

قلت بتلقائية:

- لا شيء، كفكفت دموعي وبصَمتٍ تركت المكان لهم ليقوموا هم بالإجراءات الرسمية.

قالت بغيظ:

- يالكِ من ساذجة؛ جاء إليك بقدميه وقدم يد العون، فيكون الصدود بدلًا من جملة شكر وسطها كلمة تقدير خاصة تعطيه ملمحًا عن إعجابك به!

لم أتمالك دهشتي، وهتفت بها قائلة:

- عن أي إعجاب تتحدثين، ولو وُجد كما تدعين، هُنالكَ ميت بالغرفة أشعر بالجرم في حقه، هل هذا موقف يتحمل ذلك؟!

وكما يتسبب إلقاء حصاة على صفحة نهر جارٍ بافتراق قطرتين افتراقًا يكاد يستحيل اللقاء بعده، كان تساؤل لمى هو نقطة تحول كبيرة في مسار تعاملي مع سعداوي، لست أدري هل الإعجاب جريمة يجب أن نتخلص منه؟ .. أم الإشهار به هو ما يجب تجنُّبه؟!

بالطبع سؤاله عن حالي في اليوم التالي جاوبه ردٌّ مقتضبٌ! أني بخير والتفات عنه وذهاب إلى أقصى نقطة بعيدة عن موضعه، مما يعطي إشارة واضحة بالصدود وأنه غير مرحب به وذلك على نقيض ما كُنتُ أرغب فيه تمامًا، وبالطبع كان مُتجنِّبا لي بعدها مع نظرات خاطفة كثيرًا ما كُنتُ أتصيدها وكم كانت تسعدني.

وجاء اليوم الموعود لنواجه هولًا، ما كُنتُ أحلم قط بملامسته والقرب منه لهذه الدرجة)).

*****

أصبح وضع السُّجود هو أكثر المواضع التي يرى فيها سعداوي زوجته، ولم يكن ذلك للصَّلاة دائمًا؛ إنما تقوقعًا ومحاولة احتواء الألم الذي يغلي بكل خلية من خلاياها، مراجل تشتعل بأقصى طاقتها داخلها، وصوتها الباكي الراجي الصارخ بشكوى الألم المفترس لها ينطلق بدعاء يكاد يذهب بفؤاده، وذلك حين تقول:

- يارب خفف عني ولو نصف هذا العذاب.

لأول مرة يقف عاجزًا مكبلاً بكل تلك القيود؛ خبرته الطبية واستعانته بمن هو أعلم منه في علاج الألم توقفت عند أقوى مسكن لها وبجرعته القصوى المسموح بها، فلم يَعُد "المورفين" يجدي معها سوى ساعات قليلة، ثم تعود لتصطلي ثانية بحمم البركان المشتعل بداخلها، وفي هذه الليلة لم يجد إلا أن يحتويها بين ذراعيه، عسى أن يمنحها شيئًا من المواساة بمشاركتها الأسى لما هي فيه، تمنَّى لو يستطيع أن يمتصَّ منها هذا الألم، فلربما كانت شدَّتُهُ أخفَّ وطأةً مما هو فيه لأجلها الآن.

فتح المُبَرِّد ليجلب منه آخر قطرة من "المورفين" المتوفِّر لديه، ولكن كان المحقن فارغًا تمامًا فقد استنفدته عن آخره في يوم واحد.

انطلق خارجًا مسرعًا بسيارته ومتخطيًا كل الإشارات لا يعنيه أبواق السيارات الساخطة، ولا يزجره صافرة رجال المرور الذين يخطون بدفاترهم أقصى عقاب على رعونته، وفي أقل من ربع الساعة كان يقف بصيدلية مستشفى الصَّباح ليخبره الصيدلي الليلي بها أن آخر أمبول من "المورفين" تمَّ صرفه منذ ساعة لقسم أورام العظام، وبلا ردٍّ انطلق نحو القسم ليجد الممرضة تخط شيئًا ما بدفاترها لتتسع عيناها حين مرآه وتحاول الاعتدال في وقفتها، ملقيةً بقلمها فوق الدفتر الكبير وتنحنحت قائلة:

- أهلًا يا د. محمد.

بمنتهى الجفاء وعلى غير طبيعته قال لها:

- أين أمبول "المورفين" المنصرف لك من الصيدلية؟

كانت الظنون تتراقص برأسها متسائلةً هل هي متَّهمة بشيء ما يتعلق بذلك الأمبول؟ .. التهمت تساؤلها وهي تجيب بتردُّدٍ:

- الأمبول مع ميس رحاب في عنبر ٥ الآن ...

دهس استطرادها بانطلاقه مسرعًا نحو العنبر الخامس لمرضى أورام العظام، وصل إليه في ثوان، وهناك وجد رحاب وهي تهم بضخ آخر سنتيمتر من محتوى الأمبول إلى المحاليل الوريدية المتصلة بمريض لا يكاد يستقر بموضعه متلويًّا كثعبان فوق سريره. نادي عليها بأن تتوقف وبمساءلتها عَلِمَ بأن هذا آخر ما لديها من "المورفين"، وأن هذا آخر مريض يمكنه أخذ هدنة من الألم إذا منحته إياه.

ترقرقت عيناه بالدموع وهو في حيرة لم يجربها في حياته، صراع محموم يمزق كيانه، من أحق بهذا "المورفين" الآن؟

المريض الراقد أمامه أم زوجته وحبيبة قلبه التي تركها خلفه على أمل العودة إليها به ..

صراع واختبار حقيقي لمبادئه ونُبل أخلاقه التي كم وصفه بها رفاقه،

لو أخذه من الممرضة الآن بصفته صاحب المؤسسة فلن يسائله أحدٌ، وستتعدد الأعذار له من الجميع، ولكن مشهد هذا المريض لن يفارق مخيلته أبدَ الدهر، ولكن تُرى هل سيطيق مرأى زوجته؟ وهل ستتحمل هي آلامها حتى الصَّباح؟!

ظلت الممرضة ناظرة إليه بتساؤل مشدوه منتظرة أي تعليمات منه أو حتى تسويغ طلبه عن التوقف، بينما هو يهز رأسَهُ بقوة محاولًا نفض ما به من صراعٍ نفسيٍّ يكاد يفتك به، وأخيرًا قال لها:

- أعطني هذا المحقن.

مدت يدها إليه غير مبالية وهي تقول بتلقائية:

- تفضل

وقبل أن يتناوله منها قبضت يد المريض على معصمه وهو يصرخ فيه بصوتٍ شاحبٍ قائلًا:

- أقبل يدك يا دكتور أعطني هذا الدواء، أو اقتلني حتى أرتاح مما أنا فيه.

لم يكن سعداوي ينقصه هذا القول ليقضي عمًا تبقَّى به من تماسك، فقال بصوتٍ أشد شحوبًا مما نطق به الرجل:

- أعطه أمبول نالوفين بدلًا منه، سيكون أفضل له.

همَّت الممرضة أن تعترض قائلة بأنه لم يجدِ معه عبر تعاطيه في مرات سابقة، ولكن التهمت كلماتها عندما التفت تاركًا القاعة كلها بأسرع ما يمكنه وخلفه سياط تنهال عليه بقوة وقسوة؛ والعجيب أنها كانت دعوات المريض له لأنه قرَّر أن يمنحه الأفضل!

*****

مفكِّرة شيماء:

((كانت الساعة هي التاسعة صباحًا، الجو هادئ نسبيًّا بقسم الطوارئ، وكما اعتدنا .. بعضنا ذهب لتناول إفطاره وتبقَّى البعض الآخر للعمل حتى يتم التبديل بين العمل والمأكل، وكان نصيبي هو البقاء برفقة سعداوي، وكعادتي انشغلت في حوار مع إحدى الممرضات والتي تكاد خبرتها الطبيَّة العملية تجاوزني بالكثير، ولكنها لا تمل من سؤالي عما يحدث لولدها ليلًا أو نهارًا، وما الرأي الطبي السليم في ذلك؟ وتفاجئني برأي عشرات الأطباء سألَتْهم قبلي عن ذلك، وبنظرات خاطفة لا أدري ما الذي كان يكتبه سعداوي في بعض الأوراق أمامه، وكعاصفة تنبثقُ من عدمٍ، لست أدري كيف تخطى الباب خمسةُ أفراد يحملون رجلًا ووصلوا لمنتصف القاعة في لمحِ البصر، بأجسادهم الضخمة وشواربهم الغليظة المقوَّسة لأسفل، والتي يتشاركون فيها كعلامة مميزة لهم، أو كتعريفٍ خاصٍّ بهم لا يمكنهم التخلي عنه، وبصوتهم الأجش

اختلطت أحرفهم العالية التي كان يصطرخون بها جميعًا في التوقيت نفسه، مما صَنَعَ ضجَّةً عجيبةً حتمًا ستسبب ارتباكًا كبيرًا لمن يتواجد في محيطهم، ولأن ما يهمنا كأطباء بقسم استقبال الطوارئ هو مَن المصاب ومِمَّ يشكو؟ .. تجاوزنا كلامهم المبهم هذا واتَّجهت أعيننا بلا اتفاق نحو المُسجى بلا حراك بين أيديهم ووصلنا لإجابة السؤال الأول والمهم لنا، وبارتباك وهو يشير نحو إحدى قاعات الفحص قال لهم سعداوي:

- أدخلوه هنا.

وفي ثوان توسَّد الرجل أحد أسرَّة الفحص وبصعوبة حصلنا على إجابة السؤال الثاني حين تفرَّد أحدهم باغتنام لحظة صمت من مرافقيه وقال:

- كان طبيعيًّا جدًّا وسقط فجأة بلا حراك.

ثم صرخ بلهجةٍ آمرةٍ وعجيبةٍ قائلًا:

- تحركوا بسُرعةٍ كي تنقذوا الرجل قبل فوات الأوان.

ولأن ما يهمنا بالفعل هو إنقاذ الرجل تجاوزنا الكثير من المعاملة الفجة وانطلقنا لفحصه، سعداوي بسماعته الطبية يجول بها فوق مناطق الفحص بصدر الرجل، وأنا بمساعدة إحدى الممرضات نحاول الحصول على وريد ظاهر لتركيب الكانيولا استعدادًا لما سيترتب على نتيجة الفحص من محاليل وأدوية وريدية، ولكن بعد أن جسَّ سعداوي جسد الرجل بأكثر من موضع بيده، نزع سماعته الطبية من أذنيه ونظر بدهشة نحو الرجال قائلًا:

- الرجل ميت بالفعل.

كان ساعد الرجل بين كفِّي، فجأة ألقيت به وأنا أتراجع للخلف خُطوة كأنما سيصيبني بالعدوى التي أودَتْ به، وجفلتُ وارتعدتُ رعدةً خفيفةً، ياللهول! للمرة الثانية أكون مجاورة لميت بهذا القرب، الرجل يظهر على ملامحه النوم الهادئ الوديع، كيف تبدلت مشاعري فجأة نحوه من القلق والشفقة عليه إلى الخوف والتوجس والحسابات العديدة عما يلاقيه الآن وما يتكشف له بعوالم أخرى لا قِبَلَ لنا بها؟!

قطعت عليَّ تفكيري وتساؤلاتي الفلسفية صيحة أحدهم المجلجلة قائلًا:

- مات منكم!! .. منكم لله .. ستحاسبون على هذا الإهمال.

ولأول مرة أجد صوتَ سعداوي بهذه الطبقة العالية التي نطق بها وهو يقول:

- الرجل جسده بارد جدًّا مما يعني أنه مات منذ ساعة على الأقل، سوف أبلغ الشرطة حالًا لنرى من تسبَّب في موته بالفعل.

وكانت المفاجأة حين نطق أحدهم ساخرًا وقائلًا:

- نحن الشرطة التي تود الاتصال بها.

أدركت الآن سرَّ توحُّدهم في كل الصفات الشكليَّة والحركيَّة والنفسيَّة، ولكن أعقبها رعدة جديدة مبعثها خوف من نوع آخر غير الذي اعتراني منذ قليل، يبدو أننا مقبلون على أزمة لا قبل لنا بها، ولكن سعداوي جعلني في خانة المشاهد وتفرد هو بكل ردود الفعل والمواجهة حين قال لهم:

- أهلًا وسهلًا بكم، إذن تعلمون التعامل الرسمي والقانوني، سوف أتصل بأقرب قسم للمستشفى للإبلاغ عن الحالة.

فقال الرجل بمنتهى اليُسر:

- نحن بالفعل نتبع القسم القريب منك، هيَّا يا دكتور فلتنهي تقريروفاته بسُرعةٍ حتى نرى بقية أعمالنا.

مغتاظًا ازدرد سعداوي ريقه بصعوبة وقال:

- الرجل دخل إلينا ميتًا ولم نقم بأي إجراء طبي نحوه، وبالتالي لن أخطَّ أي تقارير تخصُّه.

تأهب الجميع وقال أكثرهم غلظة بمنتهى الصراخ:

- ماذا تعني يا دكتور؟ .. والله إن لم تُنْهِ الأمر حالًا لتكون أنت المتسبب في وفاته بملفاتنا، ولنرى كيف ستواجه العواقب فيما بعد.

حاول سعداوي الحفاظ على رباط جأشه وهو يقول:

- يا سيدي الفاضل الرجل لم يَمُتْ عندنا، ولا نعرف سبب وفاته لنكتبه بتقرير!!

قال أحدهم بمنتهى التلقائية:

- اكتب سكتة قلبية مفاجئة، لن تجد من يبحث خلفك، وسوف نتابع نحن الأمر ليمر بسلام، فاطمئن.

كان الموقف عجيبًا بالفعل، فجأة تحوَّل سعداوي إلى متهم وهم من يطمئنونه على سلامة الأمر وليس العكس!!

وكانت المفاجأة التي جعلت سعداوي يتألَّق بناظري أكثر مما كان، فقد وضع يديه بجيبيه، وبمنتهى الشمم قال:

- لدي شكوك في سبب وفاته، ولن أكتب أي تقارير، ولن أسلك إلا الطريق الرسمي لمثل هذه الحالات.

لم يكن رد فعله مفاجئًا لي وحدي؛ فجأة ارتخت الشوارب الضخمة ووهنت الأجساد المنتفخة، وارتبك أصحابُها وهم ينظرون لبعضهم البعض، وبلُغةٍ صامتةٍ ارتفع تساؤلهم وسط القاعة (ماذا سنفعل الآن؟) كان جليًّا أنهم تفاجئوا برد فعلٍ لم يكن بحسبانهم، وقبل أن تُراق على الأرض كرامتهم وهيبتهم -التي يبدو أنهم لا يملكون سواها- برد فعل سريع استلَّ أضخمهم سلاحه وصوبه نحو سعداوي قائلًا بلهجة تتقطر منها سيول التهديد:

- يبدو أنك تصر على اللحاق به، هيا يا دكتور فلتنجز ما نريد قبل أن يكون مقتلك في محاضرنا الرسمية دفاعا عن النفس عند اعتدائكم على قوة شرطة رسمية.

وقبل أن تغتال الدهشة الجديدة سابقتها بلون جديد من التعجب؛ محاها الرعب الذي اعترانا جميعًا عندما تبعه بقية زملائه وهم يصوِّبون أسلحتهم نحونا وقد تراجعوا بظهورهم ليُحكِموا السيطرة على جنبات القاعة لنكون جميعنا في محط

أنظارهم، وأشار أحدهم للعامل بغلق جميع الأبواب لنصبح سجنائهم أو رهائنهم أو أي شيء ملك يمينهم يحق لهم التصرف فيه وبيدهم القوة والسلطة التي تؤهلهم لما يريدون.

لو ارتعد سعدواي وتراجع عن قراره ما اهتزت صورته عندي قيد أنملة، فقد منحه القدر كل الحجج والشبهات التي يتعلق بها مسوغاً تصرفه الذي رفضه منذ قليل، ولكن يبدو أنه مصرٌّ على الوصول بدهشتي وانهياري لدرجة أكبر وأعلى؛ فقد نظر نحوي نظرةً لا أدري مغزاها حتى الآن هل هي تخوُّف؟ أم حرص؟ أم ماذا؟ وقال للضخم المواجه له:

- هل من الممكن أن تسمح للنساء بمغادرة القاعة ولتفعل بي ما تشاء؟

بعد نظرته وجملته هذه علمت أنه يقصدني وحدي، هل هُنالكَ قصائد غزل أبلغ من ذلك؟!

قد نطرب بكلمات الحب حينًا، ولكن لمسة حنونة تعادل مجلدات منها، فما بالك بمن يفديك بنفسه في لحظة الخطر التي فطرنا على الأنانية والخوف على الذات أكثر مما سواها.

وكالعادة انتهك ذلك الغليظ أفكاري بصرخته قائلًا:

- لماذا تهوى المتاعب يا بني.

فهم الرجل ما لم أتفهَّمه أنا، لقد خاب تصعيده الذي ظن أنه سيكسر عزيمة سعدواي ويدفعه للانصياع حفاظًا على حياته التي أصبحت على المحك، وقبل أن يتصرف أيٌّ منَّا حدثت المفاجأة التي وضعتنا -أو بتعبير أدق- وضعت سعدواي في اختبارٍ جديدٍ وعجيبٍ؛ فقد سال خيطان متوازيان من الدماء من فتحتي أنف ذلك الغليظ فور انتهائه من جملته السابقة، مما دفع سعدواي لأن يشير إليها قائلًا:

- ما هذا النزيف القادم من أنفك؟

همَّ الرجل أن يكذِّبه وهو يمسح أسفل أنفه بيده ولكن تفاجأ بها ملوثة بدمه بالفعل، وأمسك برأسه وهو يتمغَّر بألم، وبصمت كان جسده مكومًا على الأرض، في حين صرخ أحد زملائه قائلًا:

- ماذا حدث؟!

قال سعداوي بجزعٍ:

- هل هو مريض بالضغط المرتفع؟

وكأنما كان ذلك الغليظ هو العقل المحرِّك للبقية، فقد انفرط عقدهم وامتهنت مهارتهم الأمنية التي ظهرت في طريقة السيطرة على القاعة منذ دقائق، واندفعوا جميعًا نحو زميلهم الذي سكن تمامًا بعد أن كانت ترتج القاعة بصيحاته، وعاد اختلاط أصواتهم العجيب من جديد لتضج القاعة بما لا نفهمه والتقطت آذاننا -فقط- جُمل التساؤل عمَّا به دون إجابة على أي سؤال مما طرح سعداوي الذي نظر نحوي مجددًا نظرةً جديدةً، ولكن هذه المرة وصلتني ترجمتها واضحة؛ فقد كانت طلبًا للمساعدة، ارتبكت وتوقفت متسائلة .. إن كان من يهدد حياتنا بظلم واعتداء منذ قليل قد مكنَّا الله منه وتيسر الخلاص النهائي من ظلمه الذي ربَّما مات بسببه ذلك الرجل المسكين مصدر كل هذه الأحداث، فأي يد عَوْنٍ قد أمدها نحوه؟!

لقد جائني الخلاص منه على طبقٍ من ذهب، كان يظن أن لن يقدر عليه أحدٌ، فأراه الله الآية الكبرى، وفي فورة تجبره وبينما بيده ما يمكنه من إزهاق أرواح الآخرين أصبحت روحه هو رهينة بين أيدينا، فما التصرف السليم؟

ولأن في الأزمات الكبرى وحين وقوع الواقعة يكون لبعض الشخصيات هبة الهيبة التي تجعل تصرفهم نبراسًا للآخرين، فتجد كلمتهم هي العليا، ودربهم هو ما يسلكه البقية ربَّما بوعيٍ أو بشكلٍ لا إرادي، ولذلك لو تركه سعداوي واستغل الفرصة للفرار أو ليتمكن من البقية لكان تصرفه صائبًا جدًّا وأعانه الآخرون، ولكن تحركه لإسعاف

الرجل مَحَتْ في ثوانٍ كل التساؤلات السابقة من داخلي، وقد أوكلت أمري إليه فحتمًا لديه المبرر الأقوى والأفضل، والذي سيجيب عن تساؤلاتي فيما بعد؛ ولهذا كانت الكانيولا المنزوعة من غلاف تعقيمها من أجل الرجل السابق من نصيب هذا الشرطي، وقد تمَّ تركيبها بسهولة في أوردته النافرة، وفي التوقيت نفسه كان سعداوي قد انتهى من قياس ضغط دمه، وعلى الفور انطلقت تعليماته بحقن الرجل بالعلاج المناسب)).

*****

اقترب سعداوي بسيارته من بوابة المستشفى باكرًا كعادته، ولكن بعينين متورمتين ويحيط بهما السواد دلالة أنه لم يذق النوم بعد، وعلى نقيض السابق كان تألق المستشفى في عينيه أشبه بإناء فاخر مرآه يسر الناظرين، ولكن ملمسه يحرق اليد التي تقترب منه بسبب الغليان الذي يفور بداخله.

لم يُصِبه الشجن الذي كان يحتويه إثر سماع تغاريد الطيور حوله، شتان بين من يرى الألم من خلف ستار، ويتعامل معه بقواعد علمية، وبين من يختنق به وينكسر تحت وطأته.

عشر دقائق مرَّت قبل خروجه من الباب نفسه ولكن بتجهم أكبر وحيرة عظيمة كادت تصيبه بيأس مقيت، لقد أخبرتْهُ مديرة الصيدلية بأنها لم يعد لديها أي رصيد من "المورفين"، وأن الحصة المخصصة للمستشفى قد استهلكت بسُرعةٍ كبيرة، ولن يمكنهم الحصول على الجديد بطريق رسمي قبل أسبوعين، ثلاث ساعات يطوف بين شوارع القاهرة والجيزة من صيدلية لأخرى بحثًا عن "المورفين" دون أثر، وعندما يُلَمِّح بأنه مستعد لدفع أي مبلغ مقابل الحصول عليه حتى لو كان بطريق غير شرعي كانت العيون تلمع بنظرات الاحتقار والتشكك ظنًّا بأنه أحد المدمنين، وأسهم في ذلك مشهد عينيه المرهقتين بكل آلام اليأس وقلة النوم، ولم يشفع له إظهار بطاقته الظاهر بها درجته كأستاذ كبير بإحدى كليات الطب.

أحيط به ولم يدر ماذا يفعل، وأخيرًا تذكره ..

أخرج جواله واتصل به مباشرة وهو يسأل الله أن يكون ظنه به في محله.

*****

كانت الساعة تقترب من الحادية عشر ظهرًا عندما ارتفع رنين الجوال بجوار عبد الكريم الذي حاول تجاهله وهو يتقلب في فراشه ضاغطًا على أذنه بالوسادة الصغيرة عسى أن تخفف من ضوضائه التي تنتهك لذة النوم، ولكن الرنين ما إن ينقطع حتى يبدأ من جديد، تساءل عمن يطلبه بإلحاح هكذا، فزوجته هي صاحبة السبق والتفرد في هذا المجال، وصوت أنشطتها اليومية بالمنزل يأتيه من الخارج فمن ذاك الذي ينافسها الآن؟! أخيرًا بعدما اقترب من درجة الاستفاقة إثر انسحاب خدر النوم عبر الطرقات المتتالية عليه من صوت الجوال اللعين، مد يده إليه ليطالع شاشته، ليجيب عن تساؤله السابق، وفجأة جذب الجوال إليه مسرعًا، واعتدل بفراشه وقد سحق كل ما يتعلق به من آثار النوم ورد بلهفة قائلًا:

- أهلًا وسهلًا يا دكتور.

جاءه صوت سعداوي وهو يقول بنفاذ صبر:

- لماذا لا تجيب يا عبد الكريم؟

حاول الرد معتذرًا وهو يقول:

- آسف يا دك..

ولكن قاطعه سعداوي قائلًا بحسم:

- فلتقابلني بالعيادة حالًا.

وطوال الطريق كانت التساؤلات تعصف برأس عبد الكريم عمَّا يريده سعداوي من عيادته، فهي الآن شبه ميتة بعد مُصاب زوجته، فقد تقطع انتظامه بها حتى

انعدم تمامًا في الشهر الأخير، وانقطعت معه كل المكاسب الجانبية التي كان يتحصَّل عليها، سواءً النسبة التي يفوز بها من قيمة كل كشف، أو الرشاوَى التي يلتهمها من بعض المرضى لتجاوز دورهم في الانتظار، ولكن على الأقل تبقَّى له الراتب الثابت الذي يناله، فرغم تفرغه الشهر الماضي فشل تمامًا في الحصول على أي عملٍ جانبيّ يساعده على تعويض ما خسر، حتى أنه تمنَّى لو ماتت زوجة سعداوي بسُرعةٍ لينتهي هذا الكساد، الكل يعلم أن هذا هو مصيرها الحتمي، فلتسترح من عذابها وتريح الآخرين من المعاناة بسببها!!

أكثر ما يخشاه الآن أن يكون هذا النداء لأجل تصفية العيادة وصرفه من العمل بها، لا يمكن أن يختل توازن سعداوي لهذه الدرجة، فرغم انقلابه عما اعتاد عليه بدرجة كبيرة بسبب زوجته إلا أنه في النهاية رجل، ويجب أن يزن الأمور بعقله ولا يخسر كل شيء دفعة واحدة، هل لو باع المستشفى وأغلق العيادة ستُشفى زوجته؟!

دخل العيادة وهو متوجسٌ منها ومتسائلًا .. ترى هل هذه هي الزيارة الأخيرة لها؟

كانت مضاءة الأنوار، وكان باب غرفة الكشف مفتوحًا، مما يشير بأن سعداوي ينتظره بها، تنحنح لينباديه سعداوي بفراغ صبرٍ قائلًا:

- ادخل يا عبد الكريم، لقد تأخرتَ كثيرًا.

جلس أمامه صامتًا كتلميذ يتنظر العقاب على عدم تأدية الواجبات المدرسية، ومترقبًا الحكم القاسي الذي سينطق به، تتبعت نظراته يد سعداوي التي فتحت دُرجًا جانبيًا لتخرج منه رزمة من الأموال بنظرةٍ واحدةٍ علم أنها خمسة آلاف وأصبح ظنُّه يقينًا بأنها النهاية، ولم يعد يعنيه ما سينطق به سعداوي الذي قال:

- هذه مكافأة لك يا عبد الكريم لو نجحت فيما سأوكلك به الآن.

تنهد عبد الكريم بعمق وقد عادت إليه أنفاسه المفقودة واسترخى في كرسيه بمنتهى الراحة، ولكن استمر التساؤل بداخله عن أي مهمة هذه يتحدث سعداوي، والذي لم يتأخر قائلًا:

- "المورفين" شبه منعدم بكل الصيدليات، وكل المستشفيات التي تحدثت معها لا يمكنها التنازل عما لديها، وزوجتي تكاد تموت من شدة الألم، أنت سريع الحركة وأبرع مني في هذا ويمكنك فعل الكثير، أثق بذكائك وقدرتك على جلبه، ولا يهمك السعر مهما كان مبالغًا فيه، ولا يهمني المصدر الذي سيجلبه لنا، فهل يمكنك ذلك؟

عاد عبد الكريم بظهره للخلف وقد تبخَّر توتره تمامًا وبدأ عقله في العمل بأقصى طاقته، لماذا يطلب منه سعداوي هذا الطلب؟

ولكن ..

الصفقة رائعة ويمكنه زيادة الأرباح فيها بمضاعفة السعر، والرجل ترك له السقف مفتوحًا ليصَّعَّد حيث شاء، شهوته للمكسب أجهضت تساؤله ومهدت له الإجابة التي ترضيه، فسعداوي وأمثاله تسير حياتهم على وتيرة واحدة ميسر فيها كل أمر، وإذا تأزَّمت أمورهم بمثل ما هو فيه الآن يضطرب ولا يجد النجدة إلا في أقرب الناس إليه، وبهذا فطلبه من عبد الكريم مكرمة له لا اتهامًا ولا شبهةً، رضي عبد الكريم تمامًا بهذا التبرير الجيد والمقنع، وبعد أن اطمأن على استقرار رزمة الأموال بجيبه نطق بكل كلمات المجاملة وأنه لا يريد أي شيء فلحم أكتافه من خير الدكتور، وأنه سيبذل جُلَّ جهده، ولن يعود إلا بأقصى كمية ممكنة من "المورفين".

والآن قد اطمأن جنانه، فالحياة عادلة تمامًا هكذا، عندما تُغلَق أبواب تُفتَح لك سواها باتجاهٍ آخر.

*****

مفكِّرة شيماء:

((بعد أن اطمأن سعداوي إلى استقرار حالة الرجل الذي أصيب بنزيف حاد بالمخ كاد يودي بحياته لولا سرعة إسعافه، اكتشفنا اختفاء كل مرافقيه، فقام بإبلاغ قسم الشرطة وتمَّ عمل محضر وتحقيق كبير بالمستشفى استهلك منَّا الوقت حتى المساء، والعجيب أن التحقيق كان مداره أكثر حول اتهامنا أو وصمنا بأي شبهة حتى تعتدل الكفة مع أفراد الشرطة هؤلاء، ويؤهل لتفاوضٍ يدفعنا للتنازل عن حقوقنا التي انتهكت، ولكن وجود الصحافة السريع حفظ لنا الكثير وجعل الأمر قضيةً كبرى تابعتها مختلف وسائل الإعلام حينًا ثم صمتت، ولم ندرِ حتى الآن إلى أي شيء انتهت، فقد كان الفوز بالنسبة لنا أن نفلت من أي اتهامٍ أو عقابٍ متعلقٍ بها، ويبدو أن هذا كان متعمدًا منهم، والله أعلم ما مصير الرجل الميت وما آل إليه أمره فيما بعد.

عدت مساء منهكة نفسيًّا والسرير يناديني نداءً خفيًّا كأفضل ندَّاهة تنتظر ضحاياها، والحق أقول كُنتُ مخدرة بالكامل، ولم يكن عندي أدنى مقاومة لندائه هذا، لولا أمي التي لم تتساءل عن سبب تأخري ولم تندهش من آثار الوهن المبالغ فيه، وبعد عتابٍ سريعٍ لغلق جوالي طوال اليوم، طلبت مني الاغتسال والتأنق بسُرعةٍ، ابتسمتُ ابتسامةً سقيمةً وأنا أقول لها:

- لقد كُنتُ على وشك أن أُسجن اليوم يا أمي.

توقفتْ وهلة ولكن نفضت رأسها وقالت:

- لا يهم سنتحدث عن هذا فيما بعد، المهم استعدي للعريس القادم.

بالطبع كل مسببات التعجب كانت قد زالت عندي إثر الخبرات السابقة مع أمي، ولهذا لم يكن لدي سوى تنفيذ أمرها الذي لا يحتمل أي وسيلة رفض، بعد نصف الساعة كُنتُ قد انتعشت قليلًا على إثر الاغتسال وبدء تناول الوجبة الساخنة الشهية التي أعدتها لي أمي ضمن فقرات الاستعداد، وبين اللقيمات سألتها عن هذا العريس المرتقب وأين أبي؟

جاوبتني أنه مهندس بترول يعمل بإحدى دول الخليج يسافر شهرًا ويعود متفرغًا تمامًا لشهرٍ مقابل، وبهذا تضمن وجودي معها شهرا وتحمل زوجي لكل واجباته في إجازته دون مشاغل تمنعه من ذلك، هذا بالطبع بجوار القدرات المادية العالية، وارتفع صوت طرقات أبي على الباب ليجيب بنفسه عن السؤال الثاني على إثر مرآه محملًا بأثقاله التي طالبته بها أمي، والتي انطلقت لتجهيزها استعدادًا للمهندس المتعجل، والذي اعتاد على تنظيم وقته وجدولته بمنتهى الدقة.

كان التوتر باديًا على أبي وهو يقول بعصبية وصوتٍ عالٍ:

- حثالة الشوارع هؤلاء يحتاجون للأدب.

قبَّلت يده وأنا أقول له:

- ما بك يا أبا خالد؟ .. هدِّئ من روعك.

ربت على كتفي وقد تخفف من احمرار وجهه كثيرًا، وقال بالتوتر نفسه:

- شابٌّ مستهترٌّ يقود سيارة لا يمكنه شراء حتى بابها، منطلق خلفي بأول شارعنا الضيق يكاد يلتصق بسيارتي ولا يكف عن اطلاق بوقه، وعندما فاجأتني قطة خارجة من باب إحدى العمارات اضطررت للتوقف المفاجئ حتى لا أدهسها؛ وبالطبع اصطدم بي، وبدلًا من الاعتذار عن صفاقته، إذا به يكيل لي السُّباب وهَمَّ أن يضربني لولا رجال الشارع.

قبَّلت رأسه وقلت له:

- لا عليك يا أغلى الناس، المهم أنك بخير ولا تشغل بالك به.

خفَّت حدته كثيرًا وهو يقول:

- لولا تعجلي ما تركته، ولكن أنقذه مني اصطحاب أحد الرجال له إلى ورشة قريبة لاستعدال ما اعوجَّ من مقدمة سيارته.

قطع علينا الحديث اتصال خالد من ألمانيا التي سافر إليها منذ شهر في منحة لنيل درجة الماجستير في الهندسة الميكانيكية، وعلى غير عادة أمي أنهت المكالمة معه سريعًا كي تختم جميع استعداداتها قبيل مجيء العريس.

بعد نصف الساعة دقَّ جرس الباب، فتوجه أبي إليه بهدوئه الجميل، تنحنح ورسمة ابتسامة كبيرة على وجهه وفتح الباب، وبعدها انطلقت العاصفة.

وظلَّ هذا الموقف مثار حكايانا وضحكنا لأمدٍ طويلٍ.

فبعد الشتائم المتبادلة والصيحات العالية التي كادت تقوض المنزل، عاد أبي باحمرار وجهه السابق وهو يقول:

- الشاب الصفيق تبعني إلى هنا هل تتخيلون لماذا؟

قلت له بتلقائية:

- يريد منك تكلفة إصلاح سيارته.

انفجر فجأة ضاحكًا وهو يقول:

- جاء طالبًا يدك، لقد كان العريس المنتظر!

*****

لم تضع تجهيزات أمي هباءً، فبعدها بيومين كان هناك عريسٌ آخر، معيد بكلية الصيدلة لديه الصيدلية التي تدر له ربحًا معقولًا، والمكانة الاجتماعية الجيدة التي اكتسبها كونه أحد أعضاء هيئة التدريس الجامعي، مرت كل الطقوس بسلام وجاءت مرحلة الحديث المتبادل، والتي من خلالها يستكشف كل منَّا الآخر، ولكن مع خبرةٍ مكتسبةٍ عبر الحكايا المتبادلة مع صديقاتي - وأهمهن لمى بالطبع - عن هذه الجلسة، راقني أن أطرح عليه تساؤلًا سبقتني به إحداهن، فقلت له:

- لو كُنتُ بقارب وكُنتُ أنا معك وأمك وإخوتك وأبناؤك، وتعرض هذا القارب للغرق، ما ترتيبك لنا في محاولة الانقاذ؟

ابتسم بوقار وبمنتهى اللباقة قال:

- من السهل جدًّا الرد عليك بإجابة مثالية ترضيك أو تحوز إعجابك، ولكن الواقع يختلف تمامًا عن الافتراضات النظرية، إجابة هذا السؤال لن تعرفيها أبدًا إلا إذا وقعت في هذا الموقف، أنا نفسي لا أدري ما أولوياتي وقتها.

obeikandl.com

كانت إجابته مدهشة وأكثر من ممتازة بالفعل، المواقف العملية تكشف لك حقيقة الإنسان، فكم من متحدثٍ لا يملك إلا ناصية الكلام وفقط، وكم من متلعثمٍ أفعاله أبلغ من كل الخطب.

ولكن على عكس المتوقع، كان لهذه النتيجة أثرًا عكسيًّا تمامًا؛ فقد عايشت من تعرض لهذا الموقف العملي وعلمت علم اليقين ما رد فعله، ولن أجد أفضل منه في ذلك، فهل أترك اليقين وأذهب لخانة الاحتمالات؟

ورغم تلككي بحُجج واهية، كادت أمي تجن على إثرها لعدم إتمام هذه الزيجة، إلا أن السبب الحقيقي كان إيَّاه، فما ذكره الصيدلي بإجابته إنما كان وصفًا دقيقًا لشجاعة وبسالة وفداء سعداوي معنا في قاعة استقبال الطوارئ من قبل)).

*****

طالت الهدنة هذه المرة مع الألم بسبب ما جلبه عبد الكريم، ولكن تقلصت فعاليته كثيرًا، وانكمشت المدة الزمنية بين كل جرعة وأخرى مما يهدد بآثار مدمرة أخرى، بدأ سعداوي في دراسة جميع الاحتمالات المتعلقة بادخال زوجته في غيبوبة مستحثة حتى تنتهي من تلك المعاناة السرمدية التي لا حلَّ لها، ولكن .. بخبرته يعلم أنها إن دخلت فيها فلن تخرج منها أبدًا، فالأمر محتوم والمصير معروف، أصبح كل همه هو الحصول على حلٍّ جديدٍ يهوِّن عليها ما هي فيه قدر الإمكان حتى يحظى بقربها والتفاعل معها بشكلٍ طبيعي أقصى قدر ممكن من الحياة، تعجب من أنه ظل طوال حياته الزوجية يسعى للنجاح وحصد الأموال، مما اقتطع الكثير من أوقاته السعيدة مع زوجته، وها هو الآن مستعد لبذل كل ما نال مقابل بضع أيام أو ساعات معها!!

ظل حبيس حاسوبه بعد أن اشترك في كل المواقع البحثية، ودفع مقابلًا كبيرًا لهذا الاشتراك، ولم يمَل قراءة جميع الأبحاث ورسائل الماجستير والدكتوراه العالمية المتعلقة بقتل الألم، ولكن لم يكن هُنالكَ الجديد الذي يبحث عنه.

وأخيرًا توقف أمام ورقة بحثية صغيرة قامت فقط بدراسة حالة نادرة جدًّا لطفلة تبلغ من العمر تسعة أعوام اسمها «جابي جينجراس» وُلِدت الطفلة بنقص عجيب في مكوناتها الطبيعية، ألا وهو عدم الشعور بالألم مهما تعرضت لمحفزاته!

تألقت عينا سعداوي ببريق افتقد إليه حينًا من الدهر، لقد وجد المفتاح أخيرًا، التهم الأسطر بِنَهَمٍ، وبعد الانتهاء من قراءة كل ما يخص جابي التي أعطته بداية الطريق السليم، تحدد بحثه في نقطة واحدة سهلت عليه الكثير، تمَّ وصف مرض جابي هذا باسم «Congenital insensitivity to pain» وتمَّ اختصاره إلى CIP، مما يعني «عدم الإحساس الخلقي بالألم».

بحث عن الحالات المتشابهة ليجد أن منها ما يقرب من مائة حالة في العالم بأسره، منها ٤٠ حالة في منطقة واحدة اسمها « فيتنجي « تتبع بلدية كيرونا بالسويد، والعجيب أن عدد سكان هذه المنطقة لا يتعدي الألف شخص!

أخيرًا تيقَّن من كون المرء فاقدًا للإحساس بالألم ممكن جدًّا وقد حدث وتكرر بالفعل، ربط هذا بتخصصه في مجال جراحة المخ والأعصاب وتذكر قول محبوبته له حين سألها لماذا نُبتلى في أهم تخصصاتنا فقالت له:

- لتعلم أن فوق كل ذي علمٍ عليم.

الآن فهم الإجابة بشكل مختلف تمامًا، ليس المقصود هو مقارنة علم العبد الضعيف بعلم خالقه جل في علاه، إنما القصد أنه سبحانه قد يبتليك في أهم تخصص برعت فيه فيدفعك لكشف المزيد، لا للتقاعس والسكون ومصمصة الشفاة قائلين سبحان الله وكفى.

ولهذا سينفق كل ما معه لو استلزم الأمر وسيسافر إلى تلك البلدة لعمل دراسة جديدة حول المصابين بهذا المرض وكشف التغير الحادث في جهازهم العصبي، وسوف يسعى إلى إجراء جراحة عصبية كبرى لها لتعديل التركيب العصبي بها كي ينزع عنها الشعور بالألم مطلقًا، لن يتردد في ذلك، ولكن دون عناء وجد عالمًا يابانيًّا اسمه «أكيرا هيتومي» قد سبقه إلى ذلك وطرح نتيجة بحثه في مؤتمر علمي بالصين

لم يسمع عنه من قبل، فخلال جميع أنواع الفُحُوص المطلوبة من رسم أعصاب وعضلات وآشعات مقطعية ورنين مغناطيسي يشمل الجسد بأكلمه، لم يجد لديهم أي تغير ملحوظ، وكان من حسن حظه أثناء البحث وفاة أحدهم وسماح أهله له بتشريح الجثة تشريحًا دقيقًا استغرق منه أكثر من شهر، كاد يخرج منه يائسًا لولا ملاحظة أخيرة كان محظوظًا بانتباهه الشديد لها، فبعض خلايا المخ عند صبغها قبل استخدامها تحت الميكروسكوب وجد أنها تستهلك كمية من الصبغة أكثر من مثيلاتها من الخلايا نفسها، وهنا خرج بنتيجة البحث بأن التغير إنما كان بخلايا المخ والتي يمكن الوصول إلى تحديدها الآن بدراسات أخرى موسعة، ويبدو أن العلماء الألمان التقطوا منه الخيط وانطلقوا في دراساتهم مستخدمين ما يسمى أشعة الرنين المغناطيسي الوظيفية مع تعريض مناطق المخ لإشعاعات غير ضارة، معلنين نتيجة بحثهم بدورية شهيرة اسمها نيوروتون بأنهم استطاعوا تحديد المنطقة المسئولة عن الألم بالمخ والمفاجأة أنها كانت منطقة أخرى غير المتعارف عليها سابقًا، ولكن عند إجراء تجاربهم وجدوا أن كل المرضى الذين حاولوا قتل الألم لديهم خرجوا بخللٍ في الرؤية وإدراك الصور، ولم يجدوا حلًا أو علاجًا لذلك، جمع سعداوي جميع النتائج المتعلقة بتلك الأبحاث وربطها بخبرته العتيقة في علم جراحة المخ والأعصاب وظلَّ مجافيًا للنوم ما يقرب من ثلاثة أيام حتى وضع افتراضًا علميًا بترقيم بعض الخلايا التي إن نجح في فصلها سيكون أشبه بفصل التيار الكهربائي عن الشبكة العصبية فيما يخص الألم فقط، وبهذا لن تتأثر أي وظيفة عضوية أخرى مرتبطة بالأعصاب مثل الحركة والاتزان أو الرؤية مثلما حدث في البحث الألماني.

المشكلة لديه هي عدم القدرة على تمييز هذه الخلايا بمجرد النظر حتى لو كانت المشاهدة تحت ميكروسكوب فائق، لا بدَّ من صبغ هذه الخلايا بصبغة خاصة بحيث تظهرها واضحة وقابلة للإجراء الطبي الخاص بعزلها بعد ذلك.

ولهذا لم يعد أمامه إلا الاتصال بذلك العالم الياباني «أكيرا هيتومي» صاحب الكشف المتعلق بأن هناك خلايا خاصة استهلكت صبغة أكثر من مثيلاتها في هؤلاء المصابين بالمرض النادر الخالي من الألم.

رتب جميع خطواته وجمع عزمه وبدأ في التحرك، تمَّ احتجاز زوجته بمستشفى الصَّباح و إدخالها في غيبوبة مستحثة ستخرج منها فور عودته وإجراء جراحة خاصة لها بالمخ، بعدها تكون قد تخلصت من كل آلامها مدى الحياة.[1]

*****

مفكِّرة شيماء:

((أصبحت بين نارين، سعداوي هو المقارَن الثابت الذي يتم تقييم كل من يتقدم طالبًا يدي به، لأنه -بكل صدقٍ مع نفسي- هو الشخص الذي أتمنَّى الارتباط به الآن، نعم أنا معجبة به جدًّا، لن أكابر ولن أحاول تزييف حقيقة راسخة بداخلي، ولكن .. بما تربيت عليه ووفق المبادئ المتوقرة بوجداني، لن أُظهر له ذلك أبدًا ولا لغيره، حتى أقرب الأقربين لي صديقتي لمى، هي مفكرتي الحبيبة فقط التي أحاورها وأبثها أشجاني عندما يحاط بي، سألزم الدعاء وفقط، إن كان هو الخير لي فليسر لنا سبحانه الارتباط، وإن كان شرًّا فليصرفه عني، ويكفيني هذا بيني وبين الله، لن أخالف مبادئي، ولن أخون ثقة أهلي بي أبدًا ولن أقدم على أي فعل ظاهره فيه السعي إليه، كان هذا هو عزمي الأكيد بعد كل ما حدث، ولكن تأتي الأحداث دومًا بما يخالف كل هذا ويحطمه، فبعد شهر من العمل باستقبال الطوارئ وسط سير هادئ للأحداث وبلا أي مواقف تدفعني لتعامل مباشر وخاص معه، كان الحظ العجيب مستمرًّا عندما انتقلنا بعدها للتدريب بقسم الجراحة العامة سويًّا لمدة شهرين وفي الأيام نفسها، مما يعني استمرار رؤية سعداوي والبقاء في مجاله أطول مدى ممكن، بعد شهر من التمرس والتدريب اطمأن النواب إلينا وكانوا يتركون لنا العيادات لنديرها وحدنا في أحيانٍ كثيرةٍ، وفي هذا اليوم كانت بدايته نقيض نهايته تمامًا.

كالعادة سيدة ريفية تخطت الستين وتعاني من فتق كبير بجوار السرة، بعد التشخيص السهل واستعداد السيدة لإجراء الجراحة، وبينما سعداوي يقوم بملء

---

١) كل سبق من حقائق علمية وطبية سليم بالفعل، ما عدا ما يتعلق بالدكتور أكيرا هيتومي وأبحاثه فهو من وحي خيال المؤلف.

استمارة احتجازها بالمستشفى من أجل الجراحة، كان يطرح عليها الأسئلة الروتينية المتعلقة بالتحضير للجراحة فقال:

- هل عندك سكريا حاجة؟

بمنتهى التلقائية والبساطة والاهتمام ردت السيدة قائلة:

- « أجيب لك يا حبيبي »

أشرق وجه سعداوي ببسمة عريضة، وجاهدتُ أنا لمنع قهقهتي محولة وجهي للناحية الأخرى حتى لا أسبب حرجًا لها، في حين قال لها بهدوئه الجميل:

- أقصد هل تعانين من مرض السكري؟

ومرَّت بقية الحالات المرضية بمنتهى السلاسة حتى ظهرت تلك السيدة، ثلاثينية ترتدي ثوبًا أسود مغلقًا بأزرَّة مضغوطة من الأمام وتعقص شعرها على شكل دائرة كبيرة واضحة جدًّا أسفل غطاء رأسها الخفيف والمزركش بكثير من الألوان، وهُنالكَ بقايا كحل بعينيها المتسعتين، دخلت مباشرة مُلقية بتذكرة كشفها للممرضة القائمة بتسجيل البيانات بدفترها، وجلست أمام سعداوي وتحدثت إليه متجاهلة إياي تمامًا رغم الزي الأبيض المميز الذي نتشارك فيه جميعًا مما يظهر أنني حتمًا طبيبة، وبمنتهى البساطة وبصوت قوي قالت:

- عندي الزائدة يا دكتور.

حافظ سعداوي على رباطة جأشه وقال:

- جميعنا لدينا الزائدة الدودية، ما المشكلة؟

قلبت كفيها متعجبةً وقالت:

- لِمَ استأصلتموها لأختي العام الماضي إذن؟

رد قائلًا:

- حتمًا كانت ملتهبة عندها.

أشارت إليه بإصبعها قائلة:

- أنا كذلك مثلها الآن.

نظر إليها متشككًا فقاطعته أنا قبل أن ينطق قائلة لها:

- ما الأعراض التي تعانين منها؟ ودعي لنا التَّشخيص

نظرت نحوي شذرًا وتوجهت نحو سعداوي قائلة:

- بطني بها سكاكين تمزقني يا دكتور بموضع الزائدة تلك.

قال لها سعداوي بمنتهى الجدية:

- الدكتورة هي من تحدثك.

بمنتهى الجمود وقد بدأ صوتها في الارتفاع قائلة:

- لا أريد الكشف عندها يا دكتور أريدك أنت.

هم سعداوي أن ينطق، ولكن قبل أن يفعلها ولعلمي بأنه سيدخل في جدال من أجلي آثرت أن أحتفظ بالبقية من كرامتي، فنهضتُ واقفةً وقلت له:

- سأذهب لجلب كوب من الشاي.

التهم كلماته وهو يزدرد ريقه وأشار بيده إلي قائلًا:

- تفضلي يا دكتورة.

انطلقت وبفشل حاولت تجنب النظرة الساخرة بعيني تلك السيدة، وبعدها علمت تفاصيل ما دار من الممرضة الوحيدة التي تبقت معه بغرفة الكشف، فقد توجه سعداوي إلى المريضة قائلًا:

- مريض الزائدة الدودية المغص لديه لا يجعله جالسًا هادئًا بمثل جلستك هذه.

قالت السيدة بمنتهى اليسر:

- فلتكشف عليَّ وسوف تعلم ذلك بنفسك.

بمنتهى السخط وفارغ الصبر أشار نحو سرير الكشف خلف ستارة وقال لها:

- تفضلي.

ذهبت حيث أشار وبعدها بدقيقتين نادت عليه بأنها مستعدة للكشف، اصطحب معه الممرضة كالمعتاد، وقبل أن يمد سعداوي يده نحوها قالت موجهة حديثها للممرضة:

- معذرة يا شابة فتجلبي لي جوالي من المكتب الذي جلست عنده حتى لا يُسرق.

بتبرم ذهبت الممرضة خارج منطقة الستار، وبينما هي تمد يدها لأخذ الجوال، إذا بصرخةٍ قويةٍ تهزُّ أرجاء المستشفى أطلقتها تلك السيدة، اندفعت الممرضة عائدة لتجد مشهدًا عجيبًا، فجميع الأزرة المضغوطة لثوب السيدة كانت مفتوحة ليظهر جسدها عاريًا بالكامل وهي تمسك بتلابيب سعداوي وتصرخ وتسبه بشتائم لا حصر لها وقد سقط غطاء شعرها الذي تناثر في جميع الاتجاهات، تفلت سعداوي منها بوجهٍ محتقنٍ وعينٍ ذاهلة وخرج مسرعًا من خلف الستار ليجد الكثير من الأعين تقف بباب غرفة الكشف متسائلة بفضول شديد عما يحدث، وبصوت شبه باك قال سعداوي بخفوت:

- أقسم بالله ما فعلت شيئا.

*****

عدت لأجد حشدًا غير مسبوق أمام باب العيادة المغلق بجسدي جنديين مسلحين من قوة تأمين المستشفى، تعجبت مما أرى وكان ظني أن الكشف الطبي بالداخل غالبًا على أحد المساجين بتأمين شرطي، ولكن كم حدث هذا من قبل فلم هذا التجمع الغريب، تجاهلت الحشد وقررت معرفة الخبر بنفسي من الداخل، فمنعني الجنود من محاولة الدخول، فقلت لهم بأني طبيبة بهذه العيادة، فقال أحدهم بصرامة:

- فلتنتظري حتى انتهاء المحضر.

حاولت اختلاس النظر للداخل فلم أرَ إلا مشهد تلك السيدة وهي تضم أطرُف

ثوبها فوق بعضه البعض بيد وشعرها أشعث متناثرًا حتى أنه يكاد يغطي عينيها تمامًا وهو تلوح بيدها الثانية وتصيح بأقوالها التي عجزت عن التقاطها بسبب الضوضاء التي خلفي، فقلت متعجبة:

- أي محضر؟ وماذا حدث؟!

وكان رده الصاعق حين قال بتلقائية:

- الدكتور حاول اغتصاب مريضته.

لست أدري كيف اختل توازني، وشعرت كأن الدنيا تدور بي، ظللت محدقة بالجندي غير مستوعبة لما قال فقلت مشدوهة:

- ماذا؟!

فقال بفارغ صبر:

- لو سمحت عودي قليلًا للخلف.

نفضت رأسي بعدما أدركت الكثير، علمت سر كل أفعال تلك السيدة منذ مجيئها، لقد كانت مصيدة لسعداوي، ولكن لماذا؟

ولست أدري من أين واتتني تلك الشجاعة العجيبة فقلت للجندي بصوت قوي يخالف طبيعتي كثيرًا:

- لو سمحت أبلغ الضابط بالداخل أن لدي أقوالًا أود ذكرها بالمحضر.

تردد الجندي ثم استدار مخاطبًا سيده بالداخل قائلًا له:

- هنا دكتورة تريد الدخول يا فندم وتقول بأن لديها أقوالًا تخص المحضر.

لم أسمع ردًّا من الداخل ولكن كانت الإجابة جلية حينما أفسح لي الجندي المجال للعبور، فانسللتُ إلى ميدان المعركة بالداخل، وأول ما بحث عنه ناظري كان سعداوي، لأراه بمشهد لم أتمنَّ يومًا أن أجده به، فقد كان منكمشًا منكسرًا متعرقًا

مرتبكًا على الكرسي اليساري أمام الضابط الممسك بقلم ويكتب بنفسه في دفتره أقوال الجميع، والذي نظر نحوي قائلًا:

- خيرًا يا دكتورة؟

قلت له بتهدج:

- لقد كُنتُ مع الدكتور سعداوي منذ مجيء هذه السيدة وهي من البداية ليـ...

قاطعني بمنتهى الصرامة قائلًا:

- هل كُنتُ هنا حين حدوث الواقعة؟

قلت بتردُّدٍ:

- لقد خرجت قبلها بسبب قد ...

قاطعني للمرة الثانية بصرامةٍ أشد وصوتٍ أعلى قائلًا:

- الأقوال هنا ستكون ممن حضروا الواقعة فقط.

وأشار بيده للخارج قائلًا:

- تفضلي يا دكتورة

قلت له بتهدج:

- ولكن أقوالي قد تفيد في اتجاه سير الأمور

فقال لي متنهدًا:

- فليكن ذلك من خلال دفاع المحامي أثناء سير القضية فيما بعد، لو سمحت تفضلي ولا تعطلي أعمالي.

ياللهول .. قضية ودفاع!! .. وليست أي قضية .. إنها قضية تَمَس الشرف، لم يكن لدي أدنى ذرة شك في سعداوي، ولكن ماذا عمن لم يتعامل معه بشكلٍ مباشرٍ؟

نحن مجتمع يروق له لوك الألسنة بكل غريب بغض النظر عن أي أذى قد ينتج عنه، نظرت نحو سعداوي فوجدتُ في عينيه نداءً عجيبًا كأنه يستنجد بي وأني

الوحيدة التي بيدها شيئًا لأجله، ترقرقت الدموع في عيني، فاندفعت خارجة خشية أن يلمحها، ولكن اصطدمت بعيني تلك الفاجرة لفِيمتُوثانية، وهذه المرة كانت تحمل نظرة انتصار متشفٍ دفع بالتساؤل السابق إلى رأسي:

- لِمَ كل هذا؟!)).

*****

كوكب اليابان كما يحب أبناء جلدتنا أن يطلقوا عليه حينما يُقارن وضعنا الاقتصادي والعلمي بهم، عند منتصف الليل حطت طائرة سعداوي بمطار طوكيو وبمنتهى اليسر والنظام توصل لغرفة الفندق المحجوزة له بقرب محطة القطارات الرئيسية, والتي سيستقل إحداها في الصَّباح الباكر، وكانت دهشته عندما وجد بغرفته سجادة صلاة أنيقة ونظيفة مطوية بعناية، وفوقها مصحف باللغة العربية، وبجوارها بوصلة لتحديد القبلة، وذلك دون طلب منه؛ فقد تمَّ إعدادها له ضمن خدمات الفندق لمجرد ذكر أنه مسلم بخانة الديانة، وفي بطاقة أرقام خدمات الفندق رابط لتطبيق يمكنه تحميله على جواله ليظهر له خريطة لجميع المساجد باليابان ليصلي بأقربها له أينما حل، نفض رأسه من الأفكار التي هاجمته حينما تذكر صعوبة الصلاة بالمساجد في مدينته الشهيرة بالألف مئذنة، وكيف أن خانة الديانة بالبطاقة الشخصية مثار قضايا وصراعات هناك الآن.

وفي الصَّباح استقل قطارًا لو كان ببلادنا لأطلق عليها مسميات عديدة مثل القطار الفضائي الفاخر أو ما شابه، الاهتمام بأدق التفاصيل فيه مدهش جدًّا، وصلت لدرجة الألوان المريحة للعين، والعجيب أنه حينما كان يمر داخل أي مدينة تغلق النوافذ بشكل تلقائي ويتم عرض إليكتروني لمشاهد طبيعية أخَّاذة على صفحة النافذة، لم يدرِ ما السر في ذلك، هل محاولة عدم اختراق خصوصية ولو بلمح البصر والذي حتمًا سيعجز عن اللحاق بأي تفصيلة مع السرعة الصاروخية هذه، أم لجعل الانطباع الدائم هو الصورة البصرية الجمالية على طول الرحلة.

وحلّقت دهشته للآفاق عندما قرأ النسخة الإنجليزية لمنشور سياحي دعائي كان بداخل جيبٍ مخصصٍ لذلك بجواره، المنشور به الكثير من المعلومات عن البلد ولكنه توقف كثيرًا عندما علم بأن التعداد السكاني لهم يتعدى ١٢٧ مليون نسمة وعلى مساحة ٣٨٠ كيلو متر مربع فقط وبلا أي موارد اقتصادية طبيعية كبرى، وخرجت من الحرب العالمية الثانية شبه معدمة، فحمد الله على النعم الكثيرة التي يرفل فيها بلدنا الحبيب من معبر مائي دولي وحقول البترول الكثيرة ومناجم الذهب والفحم والآثار السياحية العظيمة والعالمية، وأن تعدادنا السكاني لم يصل حتى إلى ١٠٠ مليون نسمة بعد، ولدينا المساحة المدهشة التي تتخطى المليون كيلو متر مربع!

وصل لمدينة كيوتو بعد سبع ساعات تنوعت فيها وسائل راحته بما سلبه أي بوادر للملل أو الإرهاق.

راجع للمرة الخامسة العنوان الذي وجده بصفحة الدكتور «أكيرا هيتومي» والتي لم يتم تحديثها منذ أشهر، حاول الاتصال به مرارًا على رقمه المذكور بها، لكن كانت تجابهه الإجابة الآلية المكررة مطالبة إيَّاه بترك رسالة إن كان لديه ما هو مهم، ولم يتم الرد على رسائله المتكررة بأهمية حاجته لرد الدكتور أكيرا.

وبالطبع لم يَحوِ صندوق الوارد إليه أي رسائل ردًّا على بريده الكثيف الذي أرسله، الآن ها هو على بعد خطوات من العيادة التي يعمل بها بمسقط رأسه، توقفت سيارة الأجرة أمام عيادة شيكوماتا والتي ذكرت في سيرة الدكتور الذاتية بأنها محل عمله الدائم، وكانت دهشته فائقة، فقد كان يتوقع بأن يجدها مبنًى عريضًا مقامًا على آلاف الأمتار ومتعدد الطوابق، ولكن وجده كبقية مبان هذه المقاطعة في التمدد الأفقي لا يتجاوز الطابق الواحد، والأعجب أنه بغرفاته الأربع لا يعمل به إلا ثلاثة أفراد فقط!

كالمعتاد كان استقباله راقيًا رغم صعوبة الترجمة، وكانت المفاجأة بأن الدكتور أكيرا منذ ذهابه لأجل بحثه بالسويد لم يَعُد مطلقًا.

*****

توقفت سيارة الأجرة التي استقلها سعداوي أمام بستان كثيف الأشجار وأشار السائق نحو باب خشبي عتيق ونطق كلمة باليابانية لم تكن في حاجة إلى ترجمة بأن هذا هو مبتغاه والذي دله عليه أحد العاملين بالعيادة حينما سألهم عن محل إقامة دكتور أكيرا قبيل سفره للسويد، دفع للسائق أجرته الذي ابتسم ورد لسعداوي بقية كبيرة ما كان ليحصل عليها لو كان هذا السائق له تاريخ مهني بأي مدينة مصرية.

انطلق الرجل وتوقف سعداوي أمام البوابة والتي لا تشابه أيًّا من المباني البعيدة التي مر عليها، فقد كان المنزل في منطقة شبه منعزلة، محاطة بالأشجار الصنوبرية والخضرة تنتشر حوله على مد البصر، ومن بعيد تطل قمم الجبال المحاطة بتيجان بيضاء من ندف السحب التي تتقرب إليه، بحث عن أي وسيلة تنبيه يمكن بها طرق الباب ولم يجد، فاستعان بقبضته مصارعًا بها الباب الضخم فوجد طرقته خافتة جدًّا لا يمكنها حتى تنبيه من يجلس ملتصقًا به من الناحية الأخرى، فلم يجد بُدًّا من دفعه، وبصعوبة بدأ في التحرك سامحًا له بفرجة أطل منها برأسه، ليجد الأشجار على نفس كثافتها وحولها الكثير من النباتات المتسلقة، وفي وسطها طريقٌ ضيقٌ مغطى بصخور سوداء قديمة وناعمة، ربَّما يكون عمرها يتعدى القرن، حاول أن ينادي ولكن انطلقت صيحة رفيعة من فم طائر لا يعرف كُنْهَهُ فأجفل وَهَمَّ بأن ينطلق عائدًا، ولكن عاد الصمت لا يمسه إلا حفيف الشجر، زاد من دفع الباب ومر من خلاله ليقف بمنتصف الطريق المغطى بورق الشجر بما يوحي بأنه لم تطرقه أقدام بشري منذ أمد، أخرج جواله وحاول الاتصال بأكيرا عسي أن يكون رده الآن، وكأن القرب من منزله سيشفع له في الرد هذه المرة، ولكن كالسابق نفس الصوت الآلي السقيم يطالبه بترك الرسالة، فجدد الرسالة هذه المرة بأنه يقف الآن بمنزله في كيوتو، وأعاد الجوال لجيبه متسائلًا:

- هل سينتهي الأمر عند هذا؟

- بالطبع لا، فلا يمكن بعد هذا الجهد أن يعود خالي الوفاض.

لهذا ارتفع صوت تهشم أوراق الشجر الجافة تحت قدميه وهو يحث الخطى

ببطء إلى الداخل ورأسه تلتف يمينًا ويسارًا عسى أن يرى علامة تقوده لأي جديد، وبعد ما يقرب من الخمسين مترًا ظهر له خلف الأشجار برجٌ أعاد له أنفاسه السليبة، إنه طرف ذلك البرج الشهير للمباني اليابانية القديمة والتي ربَّما صُمِّمت أحرف اللغة اليابانية على نفس شكلها أو صممت هي على شكل أحرف اللغة لا يدري أيهما سبق الآخر، حتمًا هذا هو البيت وقد يجد به من يمكنه توصيله إلى الدكتور أكيرا، وإن كان ذلك برجاء يشابه تماما رجاء الطالب الفاشل بأن يجد اسمه متصدرًا قائمة الناجحين رغم افتقاده لكل عوامل النجاح، فكل المقدمات تشير بأن هذا البيت حتمًا مهجور الآن.

وصل إليه ليجد المشهد الشهير للثقافة اليابانية القديمة، ما يقرب من عشر درجات لسلم عريض رخامي وناعم الملمس بشكل جعل النسمات الدائمة حوله كفيلة بتنظيفه بشكل تام ودائم، صعدها ليقف أمام الباب المتوسط لنافذتين عريضتين وبعد تكرار فشله في العثور على وسيلة تنبيه طرق الباب بيده ولكن صدر عنه صوتٌ أعلى هذه المرة بثه أملًا في احتمالية الرد عليه، ولكن بعد المرة العاشرة وقع هذا الأمل صريعًا تحت قدميه، فلم يجد بدًّا من الجلوس على إحدى هذه الدرجات النظيفة والحيرة تكاد تفتك به، لقد كانت لديه آمالٌ كبرى في لقاء هذا العالم، فأين اختفى بعد نشر أبحاثه؟

أخرج جواله ليعيد محاولة الاتصال الفاشلة ليرد برسالة جديدة وأتبعها ببريد إلكتروني آخر، وختم كل ذلك بتنهيدة حملت زفرة حارة حوت كل ما يعتمل به من انفعالات متضاربة.

وفجأة تسابق جفناه في سرعة الرمش وفرك عينيه غير مصدق لما يراه أمامه، فأثناء تنهيدته كانت الصورة جليةً واضحةً أمامه بشكل تام، الطريق الضيق بأرضيته العتيقة وحوله الأشجار الطويلة وفقط، وبمجرد طَرَفَتْ عينه وجده يقف أمامه كأنما انبثق من العدم، شيخ ياباني طويل الشعر المصفف بعناية على جانبي رأسه وبلحيته الدقيقة والمجدولة باهتمام، وبلباسه الياباني التاريخي الشهير، ثوب فضفاض يلفُّه

حزامٌ قماشيٌّ عند الوسط، شعر كأنما يعيش أحد الأفلام اليابانية التراثية، أو أنه انتقل لحقبة يابانية سحيقة، وصعدت دهشته لذروتها عندما قال له باسمًا وبعربية فصحى سليمة جدًّا:

- هل أبهرك ما رأيت؟

كاد ينفجر مقهقهًا للمفارقة العجيبة، ولم يتمالك ابتسامته وهو يرد قائلًا:

- انبهاري متصاعد منذ أن حطت قدمي بأرضكم.

تقدم الرجل إليه وأمسك بيده ليقوده إلى الداخل وهو يقول له:

- أنت تنظر للقشرة الخارجية، والدهشة لن تتملكك بصدق إلا لو ذهبت إلى العمق المطلوب.

لم يفهم سعداوي مقصده فآثر أن يذهب لغرضه مباشرة من الزيارة قائلًا:

- أريد مقابلة د. أكيرا للأهمية القصوى.

وفي باحة المنزل الداخلية والواسعة بشكل لا يتناسب مع حجم المنزل البادي عليه من الخارج لم يكن بها إلا أريكة واحدة مصنعة من الخيرزان وعليها ما يشبه الوسادة الصغيرة، من الصعب أن تكون هذه هي وسيلة راحة الرجل إن رغب في النوم!

ولكن لا يوجد بالقاعة أي تفاصيل أخرى إلا باب خلفي يشابه الأمامي تمامًا.

رد عليه الرجل قائلًا:

- وأنا كذلك أريده للأهمية القصوى.

- مَن أنت؟

- عمه.

- جميل، يمكنك إخباري عن عنوانه وسوف يتحقق مطلبينا.

- وهل لديك ما أعجز عنه؟

- نعم أراك حبيس هذا المنزل، في حين يسهل لي الحركة خارجه.

obeikandl.com

التمعت عينا الرجل ببريق خاص مع إيماءة من رأسه عبرعن مدلولها حين قال:

- زفرتك الحارة بالخارج أنبأتني عن حقيقتك.

قال سعداوي متسائلًا:

- أي حقيقة هذه؟

- أنك باحث عن الحقيقة.

هزسعداوي رأسه محاولًا نفض فكرة أن الرجل يجره لحوارسفسطائي لا طائل منه وقال:

- حسنًا هل سيشفع لي ذلك عندك لتلبية طلبي.

ابتسم الرجل ابتسامته الغامضة وقال:

- فندق « ادرياتيك ايدين « بوسط مدينة كيرونا بالسويد الغرفة ٢٣٥ بالطابق الثاني، هذا آخرعنوان معروف له، وظهربه منذ أربعة أشهر، وبعدها انقطعت كل وسائل التواصل والاتصال به.

- هل له رقم جوال خاص آخرغيرالمسجل بصفحته على الإنترنت؟

- ولِمَ يحتاج لذلك، يكفينا رقم واحد للتعامل مع البشر.

- هل لك رقم يمكنني الاتصال بك من خلاله إذا احتجت إليك.

- لن تحتاج إليَّ ثانية إلا في رحلتك إلى البرج؟

- أي برج؟!

ابتسم ابتسامته الغامضة ثانية وقال:

- ما هو تاريخ مولدك؟

تعجب سعداوي لعدم مناسبة السؤال لما قبله، ولكن لم يتوقف عند هذه، فالأعاجيب تعانقه منذ ولج هذا المكان، فردَّ بتلقائية قائلًا:

- السابع من يوليو.

فقال الرجل:

- بُرجُ السَّرطانِ.

ردَّ سعداوي قائلًا:

- نعم، بُرجُ السَّرطانِ.

اتسعت ابتسامة الرجل وقال:

- لقد كانت إجابةً لا سؤالًا.

توقف سعداوي مُراجعًا الحوار، وهزَّرأسه حيرةً وقال:

- هل تقصد بأنني سوف أحتاج إليك في رحلة الصعود إلى برج السرطان، كيف هذا؟!

قال الرجل وهو يشير للخارج في دعوة صريحة لإنهاء الحديث وطلبًا من سعداوي الانصراف:

- عندما تعثُر على أكبرا ستعرف كل الإجابات التي جئت من أجلها.

لم يكن سعداوي في حاجة للانشغال بأي أمر جانبي، ولهذا لم يتوقف أمام الكثير من الأسئلة التي أخذ يسترجعها في رحلة سفره إلى السويد:

- كيف أدرك الرجل أن لغته العربية الفصحى وهل هي صدفة أنه يجيدها؟!
- ما الحقيقة التي أخذ يردد الرجل أنه جاء باحثا عنها؟!
- ما علاقة برج السرطان الذي لم يشغل باله من قبل برحلته المزعومة هذه؟!

لقد جاء بحثا عن معلومة طبية نشر أكبرا بشرياتها بشكل مجاني عبر شبكة الإنترنت، ويبدو أن هُنالكَ لغزًا يتعلق باختفاء أكبرا وهو على ما يبدو سببٌ في تأخر الوصول للمعلومة، الأمر باختصار سيساعد هذا الرجل في العثور على ابن أخيه ليعاد لم الشمل، وفي الوقت نفسه يحصل على بغيته من معلومة علمية ستمثل

فارقا في لم شمل أسرته كذلك، وبهذا يخرج الطرفان فائزَين، ليس لديه مشكلة في ذلك دون الخوض في تلك الترهات التي حاول العجوز أن يوهمه بها.

وأخيرًا استقر على كرسيه في تلك الطائرة التي تشق عباب السماء نحو السويد.

*****

مفكِّرة شيماء:

((لأول مرة أضع رأسي على الوسادة ويعتصرني مثل هذا الألم، ملمسها الناعم الوثير وغطائي الذي أمدني بالدفء المحبب في هذا البرد القارص جعلني أتساءل كيف حال سعداوي الآن؟

أعلم مدى العدائية التي يتم التعامل بها في الأقسام الشرطية مع الجميع، بغض النظر عن قيمتهم الإنسانية أو الاجتماعية، وكأن الإذلال للجميع هو المصدر الوحيد الذي يُشعِر المسئولين هناك بمدى سلطتهم وسيادتهم!

ترى هل تناول طعامًا؟ .. من هم مرافقوه؟ .. ما مدى العنت الذي قابله هناك؟

الكثير والكثير من الأسئلة أخذت تتعارك برأسي والأسى والألم يكادا يفتكان به، وغُصة كبيرة تعتصر قلبي.

ما أقسى أن يُدان مظلوم ويعذب بلا جريرة ارتكبها، هل لهذا جعل الله دعوته لا تُرد؟

ومن بين ثنايا الأرق المغلف بالمرارة ظل مشهده الأخير يتوارد إلى خيالي بانكساره وحزنه وطلبه للنجدة، وبدأت في التفكير، ماذا عسايَ أن أقدم له، فلن أتأخر عن ندائه هذا.

وفي اليوم التالي جاءتني الإجابة، فقد أضرب جميع أطباء الامتياز واعتصموا أمام باب المستشفى تضامنا مع أكثر زملائهم تميزًا، فانطلقت الأفكار أمامي، على الفور اتصلت برقم صحفيين كانا قد منحاني بطاقة اتصال بهما وقت الأزمة السابقة التي تعرضنا لها باستقبال الطوارئ وبكلمات سريعة نقلت لهم الخبر، وكان رد فعلهما سريعًا عندما جاءا بصحبة مصورين لنشر المشهد بجميع تفاصيله، ولم أتوقف

عند ذلك، فقد اتصلت برقم الطوارئ الخاص بنقابة الأطباء، وكان رد فعلهم أكثر من ممتاز بتشكيل لجنة لم تتوقف عند قضية سعداوي، وإنما فتحت ملف انتهاك حقوق الأطباء بشكل عام، وقاموا بتوكيل محام كبير له، وبعدها بمنتهى الاطمئنان جلستُ في أول صف معتصم على أبواب المستشفى مبتسمةً برضا.

مرَّ اليوم الأول بلا رد فعل يشفي صدورنا، إلا مجيء مدير المستشفى راجياً أن ننهي الاعتصام، معللا بأن ضرره أكبر من نفعه ، وأنه تضييع لحقوق مرضى ينتظرون أطباء المستقبل، وأن اتِّباع الطرق القانونية هو السبيل الصحيح للحصول على الحقوق، وعاد خالي الوفاض عندما لم يستجب له أحد، وفي اليوم التالي جاءنا عميد الكلية بنفسه ليقول كلامًا عجيبًا، وكأنما سعداوي المعدود من أوائل دفعته لن يكون زميلًا له في القريب العاجل عندما يصير عضوًا بهيئة التدريس بالكلية، وكأنما خُلُقُ سعداوي وسيرته المحمودة بين الجميع لا تشفع له!

فقال:

- نفترض أن هناك اعتداءً حقيقيًّا على مريض، هل يضيع حق هذا المريض لأن زملاء الطبيب يعتصمون ويهددون بغلق المستشفى؟ .. هل هذا يصلح في دولة القانون وبيد الأطباء المفترض أنهم أعلى الناس علمًا وخلقًا؟

وهنا لم أتمالك نفسي فصحتُ به قائلة:

- لقد اتهمتنا جميعًا الآن يا دكتور بالانحراف الخلقي.

تلفت مسرعًا محاولا اصطياد من قائل هذه الجملة وقال بعصبية:

- هل عندما أطالبكم باتباع القانون وترك المؤسسات المختصة بممارسة أعمالها أتهمكم بالانحراف الخلقي؟!

وكأن جملتي كانت البداية التي ألقت بالشجاعة في صدور الباقين، فهتف آخر من ركن قصي قائلًا:

- مجرد افتراضك بأن زميلنا متهم ومنحرف فهو اتهام لكل المتضامنين معه بأنهم مثله.

تلفت مسرعًا للناحية التي صدر منها الصوت وقال:

- أريد منكم رجلًا يقف بمواجهتي ليحدثني.

وفي رد فعل أخاذ، وفي توقيت واحد وقف الجميع أمامه عاقدين السواعد أمام الصدور، وبصمت تام جابهته الملامح الصارمة، فلوح بيده وقال بسخرية:

- فلتجلسوا كما شئتم، ولنرى كيف سينفعه ذلك.

وانطلق لا يلوي على شيء وقد فشلت المهمة التي أوكلت له.

وكانت المفاجأة في اليوم الثالث عندما أطلق سراح سعداوي، وكانت دهشتنا أكبر مما خالجه عندما وجدنا جميعًا ننتظره عند الباب الرئيسي، وبمجرد رؤيته كانت الهتافات السعيدة القوية التي هزت كل الأرجاء.

ومن بين دموعه قال جملة لم أعلم مغزاها حتى الآن، وذلك حين قال:

- لم أكن أعلم بموقفكم المدهش هذا.

وفي العيادة التي ضمتنا من قبل، ومن بين الزوار الكثيرين الذين جاءوا إليه وعبر أسئلتهم المتكررة علمت بأنه تمَّ إطلاق سراحه بضمان محل إقامته، ولكنه أكد بيقين بأن الأمر قد انتهى، وعندما استقر المقام لنا فقط بالعيادة قلت له بجملةٍ مقتضبةٍ:

- حمدًا لله على سلامتك يا د. محمد.

قال لي بمنتهى الاهتمام:

- أقسم بالله أنني بريء.

قلت له بالاقتضاب والجمود نفسه:

- أعلم.

ولم يكن يشعر بمدى الفرحة التي اعتملت بداخلي على إثر معرفة مدى اهتمامه بتبرئة نفسه أمامي)).

*****

هبطت طائرة سعداوي بمطار «سكيلفتيا» بشمال السويد أقرب المطارات لمدينة كيرونا، وذلك بعد رحلةٍ شاقةٍ تُعد من أطول رحلات الطيران في العالم، أستقر أخيرًا بغرفته بفندق ادرياتيك ايدين؛ الفندق نفسه الحائز على ظهور الدكتور أكيرا الأخير.

كان مطلب الراحة بالنسبة إليه لا غني عنه؛ لذا بعد اغتساله وصلاته ذهب في نومٍ عميقٍ، كان ذلك في تمام الساعة الحادية عشر مساء، وعندما استيقظ كانت ساعة جواله تشير إلى التاسعة صباحًا، فأخذته الدهشة كيف استغرق كل هذه المدة نائما، فلم يحدث من قبل أن تجاوزت ساعات نومه الثمانية ساعات طوال حياته مهما كانت شدة متاعبه النفسية أو البدنية، وصعدت دهشته للذروة عندما فتح ستائر غرفته ليجد الظلمة ما زالت هي السائدة بالخارج، فظن بجواله الظنون واتهمه بمخالفة الواقع، لولا أنه وجد ساعتي الحائط والتلفاز تدافعان عنه، وزالت دهشته عندما علم أن هذا التوقيت من السنة بمدينة كيرونا بالسويد النهار فيها لا يتخطى ثلاث ساعات فقط!

وعلم كيف حصل جسده على ساعات نوم متزايدة فمجرد حلول الظلام هو حافز طبيعي يدفع الجسد للراحة أكثر على حسب سنن الكون السرمدية، بدأ في ترتيب خطواته التالية، أولًا سيبدأ بالحل الأسهل وهو طرق باب غرفة د. أكيرا رقم ٢٣٥ معه بالطابق نفسه، والغالب أنه لن يجد إجابة، سيسأل عنه إدارة الفندق بعدها، وإن لم يحصل على بغيته منهم، سيكون عليه التوجُّه إلى منطقة « فيتنجي « التي عرفها بأنها صاحبة أكبر عدد على مستوى العالم ممن فقدوا الإحساس بالألم بشكل وراثي منذ ولادتهم.

وهناك سيفوز بإحدى الحسنيين إما لقاء د. أكيرا أو حتى البحث عن الإجابات التي سعى لها من خلال مدارسة تلك الحالات مباشرة.

وقف أمام الغرفة المتألقة برقمها المميز وطرق الباب، وصمت هنيهة عسى أن يستمع لأي رد فعل ولم يجد، فطرقه مرة أخرى، ولكن بصوتٍ أعلى، فجاوبه الصمت نفسه، فلزم السكون وتلفت يمينًا ويسارًا وعندما أدرك خلو الطرقة الطويلة من

سواه اقترب بأذنه من الباب وأطرق السمع ما يقرب نصف الدقيقة، ولكن تيقن بخلو الغرفة التام من ساكنها، فهم أن ينطلق ولكن لدهشته سمع صوت تكَّة إلكترونية صادرة من قفل الباب وأضيئت نقطة صغيرة به بالإضاءة الخضراء دلالة أنه تمَّ فتحه، نظر للباب بترقب كبير منتظرًا فتحه وظهور الرجل خلفه، ولكن لم يحدث، فما كان منه إلا أن دفعه بيده وأطل برأسه للداخل، ونادى على الرجل، وكالعادة لم يسمع سوى صدى صوته فقط، تردد ماذا يفعل وتساءل بدهشة كيف فُتح له الباب هكذا؟ لا بدَّ وأن هُنالكَ من يدعوه للدخول، حتى لو كان لا يبغي الظهور أو المواجهة المباشرة، ولهذا لن يتردد في تلبية النداء، فلن يجوب أطراف الأرض ثم يقف خجولًا ليضيع منه ثمرة تعبه هذا.

لذا وطأ أرض الغرفة ببطء وحذر وهو يتقدم مستطلعًا إياها، ولم تكن تخالف غرفته في أي شيء، نفس الإضاءة الخافتة التالية لعملية التنظيف اليومي والنظام والترتيب الثابت لكل شيء فيها، فتح باب الحمام وكان خاويًا تمامًا، نظر أسفل السرير ولم يرَ إلا الفراغ، تبقى صوان الملابس وعلى الرغم من يقينه بعدم جدوى فتحه فإنه لم يتردد في سحب بابه، ومع ذلك لم يجد من كان يظنه سبب الدعوة لدخول الغرفة، وإنما طالع كل متعلقاته، الملابس المتراصة بعناية على مشاجبها، وحقيبة كبرى بالأسفل، وأخرى صغيرة تركت فوق أحد الأرفف، وبلا تردد جذب هذه الصغيرة، بها حاسوبٌ محمول أخرجه بعناية وفتحه ليجده مغلقًا بكلمة سر، وبالتالي من المستحيل الانتفاع به على حسب خبرته الشخصية، توقف متسائلًا .. إن كانت الغرفة خالية تمامًا من أي أثر لصاحبها فمن فتح له الباب بعد طرقه المتكرر؟

لم يجد الإجابة ولكن كانت الخطوة التالية المنطقية له أن يعيد الحاسوب إلى حقيبته ويحملها برفقته عائدًا إلى غرفته بسُرعةٍ قبل أن تكتشف جريرته باقتحام غرف الآخرين، وهناك وضعها بأحد أرفف صُوانه الخاص بالعناية نفسها، عسى أن يكتشف له فائدة فيما بعد.

وبعد ساعة كان يقف أمام موظف الاستقبال مسائلًا إيَّاه عن نزيل الغرفة رقم ٢٣٥ والذي تردد ونظر له بريبة وقال:

- نزيل هذه الغرفة متغيب منذ أربعة أشهر ولا نعلم عنه شيئًا؟

- هل يمكن حجز غرفته؟

- لا يمكن ذلك فقد سدد أجر حجزها لمدة عام منذ اختفائه.

كانت الإجابات تصعد بدهشته أكثر على نقيض ما أراد، لماذا تحيط الأسرار حول هذا الرجل؟

لِمَ يلف الغموض كل ما يتعلق به سواء بمسقط رأسه في اليابان أو هنا حيث أجرى دراسته واختفى بعدها، ترى ما سبب اختفائه أصلًا؟، فالدراسة لا تتعلق بأي أمر استراتيجي كبير، فهو مجرد بحث طبي علمي متخصص ونشرت نتائجه على شبكة الإنترنت، وأصبح ملك الجميع، فماذا هُنالكَ خلف الكواليس؟!

لذا لم يعد أمامه إلا الذهاب إلى «فيتنجي» عسى أن يجد إجابته هناك، ولم يكن يدرى بأن ما ينتظره هناك يتخطى مجرد الإجابة بكثير!

*****

مفكِّرة شيماء:

((مر بقية عام الامتياز بلا اضطرابات أو أحداث خاصة، ولكن بالطبع كان الشريك الدائم معي بجميع الأقسام هو سعداوي الذي اعتدت على أن الحياة العملية لا تستقيم إلا معه، وبالطبع فشلت فيها ثلاثة عروض للزواج لأسباب كثيرة، أهمها سعداوي بالطبع، وكما كان متوقعًا تمَّ تعييننا نوابًا بالجامعة بقسم جراحة المخ والأعصاب، وهو ما يعادل درجة معيد بالكليات الأخرى، لست أدري ما سر العداء الشديد الذي وُجهتُ به من كل العاملين بالقسم؟ هل كل هذا لأني الأنثى الوحيدة المعينة به؟! المفترض حسبما أخبرتني لمى أني سأصبح الملكة المتوجة، يسعى الجميع لنيل نظرة رضا أو بسمة خاصة، وسوف تُنسج الأساطير حولي، وكل منهم يحاول إظهار أنه الفائز بي!

ولكن كانت الجملة الأولى من رئيس القسم قائلًا:

- ما الذي جاء بك هنا بنيتي؟! ستضيعين تفوقك هباءً، كان الأجدر بك التفكير العملي واختيار قسم يليق بك وبقدراتك

وعندما أخبرته بأني أعلم قدراتي جيدًا وأن اختياري مبني على حُب هذا المجال، وأني على قدر المسئولية إن شاء الله.

لوح بيده وقال:

- كما تحبين فلتتحملي.

أقدم النواب سنًّا هو سامح، ويطلق عليه لقب النائب السينيور، ويعد الزعيم والمنظم لكل شيء يخص النواب، ويصبح حلقة الوصل بيننا وبين الأساتذة والمدرسين المساعدين، والذي تعامل معي بمنتهى الصلف والقسوة، وتعمد أن يكون أسبوعي الأول كله نوبات عمل ليلية تبدأ من الثامنة مساءً للثامنة صباحًا، عرض عليَّ سعداوي تبديل نوبات عمله معي، ولكن رفضت لا لشيء إلا لكي أثبت لهم قدرتي على المثابرة، فهذا الصفيق جاء بأقصى ما لديه دفعة واحدة، وكان حريٌّ به التصعيد البطيء فيوقعني من إحباط لآخر، ولكن معنى تحملي لأقصى ما لديه يعني سهولة ما بعد ذلك، وهذا ما أردته لنفسي، وبعد ذلك كان يتعمد إذلالي بما نطلق عليه المهام القذرة، مثل حمل جوال الأستاذ أثناء انشغاله بإحدى الجراحات، والرد على المكالمات الواردة بأنه سيكون قابلًا للرد بعد ساعة لانشغاله بعملية جراحية عالمية! أو الذهاب للإتيان بحقيبة آخر من سيارته التي تعمد أن يوقفها في أبعد نقطة يمكن الوصول إليها، هذا بالإضافة إلى رفضهم أن تمتد يدي بأي مساعدة في أي عملية مهما كانت صغيرة، كل هذه الإهانات والمعوقات المتتالية لم تهن من عزيمتي، عام كامل من نيابتي تذوقت فيه كل مرارة العالم وشقائه، ولم أمارس من مهارات جراحات المخ والأعصاب إلا تصنيف الحالات وتحضيرها للجراحة فقط!

في هذا العام لعنت أمي كلية الطب وتفوقي وتعييني بالجامعة الذي يكاد يقضي عليَّ ويضيع مستقبلي الحقيقي بالاستقرار في بيت الزوجية!

وكان سامح يتلذذ بإذلالي طوال هذا العام، وأخيرًا انتهت فترة نيابته ليحل محله طبيب آخر يسمى هاني، كان دمث الخلق، واعتذر لي صراحة عن معاناتي في العام السابق بسبب سامح، وتبدل الحال كثيرًا بعد مشاركتي في أغلب العمليات، وتحسين جدول العمل بما يتناسب مع أحوالي، وكان هاني يتعمد إشراكي في العمليات التي يكون بها أساتذة ممن لا يعانون من أي مشاكل أو عُقَد نفسية، وذلك بعد الحادثة الشهيرة التي وقعت مع ذلك الاستاذ العائد حديثًا بعد نيل درجة الدكتوراه بمنحة في الولايات الأمريكية، نظر نحوي بدهشة وقال لي:

- طبيبة في جراحات المخ والأعصاب ومحجبة!!!

قلت له بتلقائية:

- اعتدت على التعجب من كوني طبيبة، ولكن ما مشكلة الحجاب؟

- ألا تشعرين بأنه قيد لا طائل من ورائه يعوق حياتك؟

وعندما أخبرته بأنه فرض من الله، ثار وطردني من غرفة الجراحة.

أراحني هاني وتقدمت حياتي كثيرًا، وفي هذه الأثناء كان سعداوي منهمكًا في أعماله المكلف بها بالمستشفى الجامعي بجوار العمل الخاص بعد أوقات العمل الرسمية بمستشفى أحد الأساتذة، وعندما عرض عليَّ العمل في نوبتين فقط بتلك المستشفى الخاص، رفضت ولم يكن السبب هروبا منه ولكن لأن طاقتي وحركتي لا تسع ذلك بالفعل، يكفيني في هذه المرحلة عملنا الرسمي وكفى.

زاد تودد هاني لي ومساعداته المتنوعة كذلك، وأخيرًا قالها صراحة بأنه يود الارتباط بي!)).

*****

منطقة فيتنجي بشمال السويد اشتهرت بقربها من أكبر منجم للحديد في العالم، وذلك قبل أن تتميز شهرتها لدى المهتمين بالشأن الطبي بانفرداها بأكبر عدد ممن يحملون تلك الخاصية الفريدة، وكانت لا تبعد أكثر من نصف ساعة عن الفندق الذي نزل به سعداوي، وعلى الرغم من صعوبة استيعاب الظلمة أغلب اليوم، فإن سعداوي عندما وصل إليها بسيارة الأجرة كان ضوء النهار-بلا ظهور مباشر للشمس- قد بدأ في البزوغ ليستمتع بالمشاهد الطبيعية الخلابة، الكثير من الخضرة والأشجار السامقة تتخللها المنازل المصممة بشكل أنيق أخَّاذ، المنطقة بأكملها لا يزيد عدد سكانها عن ثمانمائة إنسان، ويتبعون دولة صُنفت على أنها أعلى الدول رفاهية على مستوى العالم، تساءل سعداوي لم كل الدول المصنفة بأنها الأعلى والأفضل في مستوى المعيشة والرفاهية والصحة من النادر أن تعرف لهم اسم زعيم تاريخي؟ في حين أن بلادنا تعج بأسماء الزعماء العظام المسبوقة بألقاب فخيمة، ولكن قيمة الإنسان الاعتيادي فيها يقارب الحضيض إن لم يكن مستقرًا به!

سأله السائق عن وجهته داخل المنطقة، وبمراجعته السابقة للخريطة طلب منه التوجه إلى الحديقة العامة بها، ليرى ذلك الغزال الذي يتهون به فخرًا هناك، ليعود مندهشًا بسبب قبح منظره؛ حيث تشبه رأسه رأس الحمار، ويتشح بالسواد التام مع حجم كبير يكاد يقارب البغل أو الحصان، ابتسم وهو يتذكر أن الغزال عندنا أحد وجوه المدح للنساء، تمتم قائلًا:

- الحمد لله أنك غزال نادر!

أثناء بحثه المسبق لم يجد أي عيادة بهذه المنطقة، ولهذا كان توجهه للحديقة لكي يسأل روادها أو العاملين بها بشكل مباشر عن أي عيادة داخل فيتنجي، ولأن أغلب أهل السويد يجيدون الإنجليزية كان التعامل معهم سهلًا بإنجليزيته الجيدة، وكان الرد بأنه لا توجد عيادة هنا ولكن في حالات المرض أو الإصابة يذهبون إلى كيرونا، فسأل الرجل ما المكان الذي يتوجه إليه الجميع ولا غني عنه هنا بفيتنجي، وكانت

الإجابة بيسر أنها كنيسة فيتنجي، فلم يتردد في الذهاب إليها ليرى مبناها الصغير شديد الأناقة بلونه الفضي من الخارج، بصليبها الذهبي والذي يعلوها فوق ما يشبه الرمح الطويل، طرق الباب وبعد خمس دقائق كان يحتسي مشروبًا دافئًا مع راعيها بالداخل، كان الرجل ودودًا لأبلغ مدى وهو يخبره بندرة السائحين الذين يأتون لهذه المنطقة، تنحنح سعداوي وقال:

- في الحقيقة لم آتِ إليها سائحاً، وإنما جئتُ من أجل بحثٍ علميٍّ طبيٍّ سيمثل فارقًا لحياة أقرب الناس لي.

زالت بسمة الراعي الودودة وحل محلها تجهم عجيب وبصمت أشار بيده لسعداوي دلالة استكمال حديثة والذي استطرد مضطربًا يقول:

- منطقتكم هذه اشتهرت بأكبر عدد ممكن ممن يحملون خاصية بشرية فريدة، وهي عدم الإحساس بالألم، وسبقني إليكم طبيب ياباني ووصل لأبعد نقطة قد يمكنني الوصول إليها، أريد مقابلته أو معرفة ما انتهى إليه في بحثه؟

قال الرجل بحرص:

- هل كُنتُ على تواصل مباشر مع الرجل؟

لجأ سعداوي إلى الكذب ظنًّا منه بأن ذلك سيمهد له السبيل الذي ولجه أكيرا من قبل فقال:

- نعم، كُنتُ على تواصلٍ مباشرٍ معه حتى أربعة أشهر مضت، ولا أدري أين هو حتى الآن.

صمت الرجل هنيهة وابتسم قائلًا:

- أستأذنك لشيء خاص بالداخل، لن أتغيب عنك أكثر من دقيقتين.

بمنتهى اليُسر أشار له سعداوي بأن يتفضَّل، وبالفعل عاد الرجل بعد دقيقتين لا أكثر وجلس قائلًا لسعداوي:

- وما رأيك فيما وصل إليه؟ هل يستحق كل تلك التضحيات؟

- بالطبع لو استطعنا فعلها بشكل مكتسب وبلا آثار جانبية كبيرة ستكون ثورة طبية.

هزَّ الرجل رأسه وقال:

- ماذا ستفعل مع د. اكيرا إن التقيت به؟

- أريد فقط منه معرفة الخلايا التي تمَّ تمييزها بهؤلاء المرضى، وما الصبغة المحددة لها؟ وبهذا تسهل الجراحة المطلوبة.

ظل الرجل يسائل سعداوي عن درجته العلمية، وما أشهر الجراحات التي قام بها، والأخير يجيب بمنتهى الحماس ظنًّا منه أن هذا الاهتمام هو ما يسبق منحه ما يريد، وكانت المفاجأة بعد عشر دقائق عندما وصلت قوة بوليسية ليتم القبض عليه بتهمة المشاركة في قتل أحد أبناء فيتنجي!

*****

الحيرة والدهشة هما المتصارعان في نهش سعداوي وقد سلبا البرودة الشديدة تفردها في ذلك، أي جريمة قتل هذه التي شارك فيها وهو لم يدخل البلاد إلا منذ بضع ساعات مضت، وتعامله كان محدودًا للغاية!

وبدأت الحقائق العجيبة في التكشف أثناء التحقيق الذي تمَّ تعيين محامي حقيقي له ليرشده إلى حقوقه ويمهّد له سبيل الرد السليم بما لا يدينه، د. أكيرا سلك نفس دربه منذ عام كامل، استقر بفندق ادرياتيك، ذهب لراعي كنيسة فيتنجي وشرح له الغرض من بحثه وعاونه الرجل بأفضل ما يكون، وكان أكيرا يصحب الحالات الأربعين دفعة واحدة مرة كل شهر على الأقل لإحدى العيادات الخاصة التي تعاقد معها بمدينة كيرونا من أجل الفحص الطبي الذي يدعم جهده البحثي، وقبيل انتهاء العام بشهر واحد سافر في رحلة سريعة إلى اليابان لمدة خمسة أيام فقط، عاد بعدها ليصحب كل الحالات معه للمرة الأخيرة إلى عيادة كيرونا وطلب منهم تناول سائل مجهول وبعدها بساعتين قام بعمل أشعة رنين مغناطيسي للمخ، وأثناء عودتهم شكرهم جميعًا على الجهد الكبير الذي خدموا به الإنسانية وأغدق عليهم الهدايا،

وحزم حقائبه استعدادًا للسفر، ولكن قبل سفره المحدد بيوم واحد مات شاب يبلغ من العمر سبعًا وعشرين عامًا إثر انزلاقه من فوق سطح منزله المغطى تمامًا بالجليد، جاء أكيرا معزيًا باكيًا يحمل الكثير من الصور الضاحكة للشاب الفقيد، ويقسم بأنه كم أحبه كأنما كان أحد أبنائه، وتأجل سفره، وعاد ليلا إلى أهل الفقيد ليطلب منهم برجاء شديد التصريح له بتشريح جثة الشاب، وأن هذا سيحقق سبقًا علميًا يجعل للحياة التي بذلها هذا الشاب قيمة كبرى تفيد البشرية كلها، وأغراهم كذلك بالمال، فكانت الموافقة، وظلَّ شهرًا في عمله مع جثة الشاب تحت هذا الزعم سافر خلاله لمدة يومين فقط إلى اليابان في رحلة شاقة لا يمكن أن يتحملها أي شخص اعتيادي للذهاب والإياب بهذه السرعة لكل هذه المسافة، وبعد انتهاء الشهر أعاد الجسد لأهله شاكرًا إياهم بعمق، وأنه بالفعل قد أفاد البشرية بأكثر مما كان يتوقع بكثير، وتمَّ الإعداد لمراسم الدفن التي تحددت بعد يومين، وكان عجيبا تغيب أكيرا عن هذه المراسم بعد كل الود والتقرب السابق لأهل الفقيد، ولم يظهر بعدها، ظن الجميع بأنه قد سافر لبلاده بعد انقضاء غرضه من هذه المنطقة، ولكن تفجَّرت مفاجأة مدهشة، فقد تمَّ إرسال بريد إلكتروني من مجهول إلى أقرب قسم شرطة لفيتنجي يتهم ويؤيد بكثير من الأدلة أن وفاة الشاب لم تكن بسبب حادثٍ عفوي إنما كانت قتلًا مع سبق الإصرار والترصد، والفاعل هو المستفيد الوحيد من ذلك، أكيرا!

ثارت ثائرة الجميع وقد بدأت الحكايا في السرد بما يؤيد هذا الاتجاه، وأن أكيرا لم يكن شخصًا سويًا بشكلٍ تامٍ كما كان يظهر عليه، وأن توده للشاب قبيل مقتله إنما كان بغرض الوصول لجثته حتى ينتهي إلى بحثه المجهول عليها، أصبح البحث عنه والرغبة في العثور عليه هي أمل الجميع، لم تمل الشرطة من بذل الجهد في الوصول لطرف خيط قد يدل عليه، وبعد اليقين بعدم مغادرته للسويد تمَّ وضع اسمه على لائحة المنع من مغادرة البلاد حتى لا يهرب بجريمته دون عقاب، وعندما كاد اليأس يقهقه منتصرًا كانت مفاجأة كبرى عندما ظهرت نتيجة بحث أكيرا في ورقة بحثية بإحدى المؤتمرات الطبية في الصين، مما يعني أنه قد فر بالفعل، ولكن بمراسلة

القائمين على المؤتمر تبين بأن البحث أرسل إليهم إلكترونيًا من السويد لنشره وطرح ما فيه للمناقشة دون حضور صاحبه، فانتعش الأمل ثانيةً في العثور عليه ومنحه ما يستحق، فلن ينال المجد العلمي هكذا بلا مقابل!

وعندما كاد اليأس ينفش ريشه ثانية ظهر سعداوي ليؤكد بأنه شريكٌ مباشرٌ له في هذا البحث، وبالتالي فهو يُعَدُّ شريكًا في جريمة القتل، حتى لو كان ذلك بشكل غير مباشر، ويجب أن ينال ما يستحق جراء ما اقترفت يداه!

*****

مفكِّرة شيماء:

((حقيقة توصلت إليها وكان أكبر عامل ساعدني في ذلك هو تغليب التفكير المنطقي وخنق الاندفاع الشعوري به، المعايشة الدائمة أو ما يُطلق عليه العِشْرَةُ هي ما تخلق المشاعر والتآلف وتولد الحب مهما كان التباين بين الطرفين؛ طالما كان لديهما الحد الأدني من التوافق، كل قصص الحب الكبرى الشهيرة بما فيها « ترويض الشرسة « تولد الحب بعد هذه المعايشة وتكرار المواقف التي خرج منها الكثير من المشاعر التي أفضت بأصحابها إلى نقيض ما بدأوا به؛ لذا طوال سنة الامتياز كان سعداوي هو الوحيد الذي يتحرك في بؤرة ناظري وتولد عن ذلك الكثير من المشاعر التي كانت تتجدد عبر مواقفه المتكررة ورؤيته المستمرة، وبالتالي كان مقارنة كل من يتقدم طالبًا الزواج مني مع سعداوي لم تكن في صالحهم قط، لأنني أقارن مجهولًا بمعلومٍ؛ ولذا كان طلب هاني من أكثر الأشياء التي أربكتني في حياتي، وكان توقيت طلبه مناسبًا جدًّا، فحياتنا العملية بعد عام كامل في النيابة بكلية الطب قد أنهك حتى مشاعرنا، وابتعد سعداوي كثيرًا عني بمجاله وكل مؤثراته، وأصبحت المقارنة هنا لمعلوم مقابل معلوم، هاني طيب القلب، دمث الخلق، مباشر وصريح، ولكن رغم كل مساعداته لي لم أرَ منه مثل ما رأيت من سعداوي، وعندما فاجأني بطلبه بأنه يشرفه السعي للارتباط بي، كان ارتباكي الشديد وخجلي غير مصطنعين على الإطلاق، ومن وسط تلعثمي لم أدر بما نطقت إلا حينما رأيته يجالس أبي في صالون بيتنا، وذلك عندما قال لأبي:

- دخلت البيوت من أبوابها كما طلبت الدكتورة شيماء، وكلي أمل في قبول طلبي.

ظن الجميع بأن هذا هو العريس المرتقب والذي رفضت من أجله كل من فات، وبعد عرض هاني لكل أحواله واستعداداته للزواج طالبه أبي بمهلة للتفكير، فرحة أمي المبالغ فيها، وبسمة أبي العريضة لم يمحُها التأكيد والنفي بأنه لا يوجد سابقُ ارتباطٍ شعوريٍّ ولا تفكير نحو هاني هذا، مازحني أبي قائلًا:

- هل أرفضه بقلب جريء ودون مخاوف من تحطيم مشاعرك.

يبدو أن نفي المتكرر كان يوطد لديهم ما استقر بجنانهم نحو هذا الأمر، فقلت له:

- أقسم لك بالله يا أبي أنني في حاجة كبيرة إلى الاستخارة في هذا الأمر.

وقد كان بالفعل، وكانت كل العوامل في صالح هاني، حياتي العملية ستكون أكثر نجاحًا بالارتباط به، سواء في الظرف الحالي بالعمل في المستشفى، أو في المستقبل بعد انتهاء فترة النيابة، هو يكبرني بعامين وهذا أفضل لي بكثير، الرجل لم يتردد في اتخاذ الخطوة العملية السليمة والتي يجب على أي رجل حقيقي أن يقدم عليها بلا تردد إن كان هدفه الحقيقي هو الارتباط بالفعل، وعلى الرغم من أحواله المادية التي لم تكن تؤهله للارتباط السريع، حيث إنه قادم من إحدى قرى محافظة البحيرة، ومن أسرة متوسطة ويقيم في المستشفى بشكل دائم توفيرا للنفقات، إلا أنه أكد لوالدي أنه سيكون مستعدًا للزواج خلال عام أو عامين، وسيكون ذلك مبدأيًّا في شقة مؤجرة، وبعد انتهاء نيابته سيسهل عليه العمل الذي يجلب له المال الوفير والذي يجبر كل كسر وينتهي به للاستقرار المادي والاجتماعي كثيرًا، وذلك ما سيتحقق في أقل من عامين، أبي بتفكيره العملي لم يتوقف كثيرًا عند هذه النُّقطة، فهو ينظر للمستقبل البعيد ويعلم ما يمكن لهاني أن يصل إليه فيما بعد، أرسل من يسأل عن هاني وأسرته، وعندما عادت الأخبار بما يطيب له، راسلنا أخي خالد بألمانيا لنعلمه بالخطبة التي بدأت إجراءاتها الرسمية، وذلك بعد أن غلبني عقلي بأنه ليس من الحكمة أبدًا رفض هاني من أجل سعداوي الذي قد ابتعد كثيرًا بكل مؤثراته وترك مساحة كبيرة نجح غيره في احتلالها، وأخيرًا تمت خطبتي الرسمية لهاني)).

*****

الشعور بالظلم يكون مهلكًا دومًا مهما كانت المعاملة راقية، انكسر سعداوي وأصيب بما يشبه الاكتئاب ولزم الصمت حينًا من الدهر وهو يسترجع حياته كلها ويراها من منظور جديد، هل كان يتوقع في أقصى أحلامه أن ينتهيَ به الأمر هكذا؟

طلب إجراء مكالمتين لبلده فسمحوا له، الأولى كانت للاطمئنان على زوجته، والتي علم بأن جميع أمورها مستقرة جدًّا في غيبوبتها المستسلمة لها، وعلاجها الكيميائي مستمر رغم مفارقتها للوعي، والمكالمة الثانية كانت طويلة المدى والمدة، أعادت له الكثير من التوزان والاستقرار النفسي، ولأن الوصول إلى الحقيقة هو الهدف الرئيسي للمحققين، وعبر فحص مراسلات سعداوي الإلكترونية ومحاولات الاتصال التليفونية العديدة والفاشلة بأكيرا، وبعد شهر من التدقيق والبحث ووضع كل الاحتمالات البعيدة والقريبة، تمت تبرئته وإطلاق سراحه ولكن مع منعه من العودة مرة أخرى إلى منطقة كيرونا وفيتنجي مدى الحياة؛ فَهُم لن يتركوا أبناءهم عُرضة لأبحاث جديدة قد تعرض آخرين لمخاطر لا يعلمون أشكالها المتوقعة، وبما أن سعداوي من المختصين والمهتمين بهذه الحالة الطبية النادرة وقد ارتبط اسمه بأكيرا المتهم الرئيسي بأول جريمة في هذا الشأن، كان من العدل بالنسبة لهم هذا الحكم عليه، خرج سعداوي إلى فندق ادرياتيك حيث غرفته التي ما زالت محتجزة باسمه وتحوي كل أشيائه، قام بالحجز الإلكتروني على أول طائرة متجهة إلى مصر، والتي ستقلع بعد خمس ساعات، حزم حقائبه جيدًا، وبينما هو يفعل تألقت أمامه تلك الصغيرة الخاصة بأكيرا والتي تحوى حاسوبه المحمول، وقف مليًّا يتطلع إليها والأفكار تتناوب عليه، صاحب هذه الحقيبة مختفٍ منذ خمسة أشهر الآن، ومن الواضح أنه تعرض للقتل انتقامًا من أهل هذا الشاب، وبالتالي هذا الحاسوب من المتوقع أنه يحمل كل تفاصيل نتائج بحثه العلمي، أليس من العدل بعدما دفع الثمن باستحقاق كبير من حريته وانكسار نفسه في ذلك السجن لمدة شهر، أليس من العدل أن يحصل على هذا البحث؟

ولو ظهر أكبرا بعد ذلك سيعيد إليه كل ما يريد: فمن السهل إرسال جميع الملفات إليه إلكترونيًّا وسيدفع له ما يريد عبر أي وسيلة دفع عالمية مقابل حاسوبه أو حتى مقابل دراساته تلك.

إن كان الجهاز محميًّا بكلمة سر فهناك بمصر أصغر صبي يعمل بأحد محلات الكمبيوتر يمكنه تجاوزها، وبهذا تصبح رحلته ناجحة وقد حققت الغرض منها كاملا، استقر بوجدانه أن هذه مكافأة له من الله ولن يضيعها، ولهذا دس الحقيبة ضمن أشيائه بمنتهى الرضا والاطمئنان، وبعدها بخمس ساعات حلقت به الطائرة لتجوب الأجواء عائدة إلى القاهرة وهو مسترخ باستمتاع ووجهه يحمل بسمة رضا كبيرة.

*****

شعورٌ عجيبٌ لن يعرفه إلا من يجربه، مهما كان سخطك على وضع بلدك أو سلوك أهلها أو نظام حكمها، ومهما كان اختناقك بما يجري فيها، إلا أنك بمجرد أن تضع أقدامك على أرضها؛ إلا وتشعر كأن كل ذرات جسدك المختلة قد استقرت بمواضعها السليمة وسرى الاطمئنان بعروقك، وهدأت نفسك وعمَّت السكينة بوجدانك، كان هذا الشعور مضاعفًا هذه المرة مع سعداوي، فخلال سفره المتواصل لكثير من المؤتمرات الطبية التي جاب بها أغلب المدن الأوروبية والأمريكية كان يتجرع هذا الإحساس عقب كل عودة رغم الفارق المادي والعلمي بين ما كان فيه بالمؤتمر وبين الأجواء المضطربة فكريًّا وعلميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا والتي حطَّ إليها مرة أخرى، هذه المرة كانت العودة بعد مهمة شاقة وعسيرة تذوق فيها الألم البدني والنفسي بأضعاف ما كان يتخيل، ائتلفت روحه مع الجو الملبد بالغيوم والرياح الترابية للبلد في هذا التوقيت من السنة، وشعر به جوًّا سياحيًّا بديعاً، انطلقت سيارة الأجرة لتوصله إلى منزله، والذي على نقيض مشاعره السابقه كان خاويًا على عروشه، يلفه الصمت الكئيب، ويتربع على عرشه الحزن الدفين ليصيب به قلب من يلج إليه، فطالما غابت الملكة عن مملكتها فلن يعشش خلفها إلا كل تلك المشاعر السلبية بعد أن صحبت معها كل البهجة والسعادة والاطمئنان والمودة التي كانت تعمر بهم المكان، بعد

رحلته الطويلة والتي حظيت باستراحة ساعتين بمطار أمستردام في هولندا، آثر أن يغتسل ويؤدي صلواته لينال قسطًا من الراحة كي يستعد لمهامه الطويلة والعسيرة التي تنتظره، وقبل أن ينغمس في رحلة النعاس الجميلة أجرى مكالمتين أقرتا عينه باطمئنان، كانت أولاهما تطمئنه بأن زوجته ما زالت في طور الاستقرار دون أي تطورات مفاجئة.

*****

- الجهاز لا يحمل أي كلمات سريا أستاذ!

نطق بها شابٌّ في العشرين من عمره ارتفع شعره من الوسط بشكل عجيب يشبه أعشاب أحد الجداول المهملة وشعيراته قد التفت حول بعضها بشكل عجيب، بينما تمَّ مسح الجانبين وقص حرف إنجليزي لم يجهد سعداوي نفسه في محاولة معرفة ماهيته، ولكن نظر إلى صاحبه بدهشة قائلًا:

- ماذا؟ لقد كان مغلقًا بها حينما حاولت فتحه.

ابتسم الشاب باستهتار وقال:

- البركة فينا، أعطني الأجر كاملًا في هذه الحالة.

هزَّ سعداوي رأسه تعجبًا وهو يمنح الشاب ما أراد عند معاينته لسطح مكتب حاسوب أكيرا عقب استكمال فتحه، يذكر جيدًا محاولته الأولى عندما اقتحم غرفة الفندق ومحاولة الفتح التي وقفت أمامه عند طلب كلمة السر، لا يوجد أي تردد أو شك لديه في هذه الذكرى القريبة، لقد كان ذلك هو السبب المباشر في أنه لم يحاول فتحه مرة أخرى حتى عقب وصوله للقاهرة، وتوجه به مباشرة للمختصين كما تعود في كل شئونه، شكر الشاب وأخذ منه رقم جواله للاستعانة به لو جد شيء في هذا الشأن، وبعدها بساعة كان مستقرًا على مكتبه منتظرًا ولوج الحاسوب إلى سطح المكتب ليبدأ في استخراج أبحاث أكيرا منه، وذلك دون أدنى إحساس بالتأنيب أو وخز الضمير، وقفزت دهشته إلى أعلى مراحلها عندما اكتشف بأنه يحمل جهازًا خاويًا

تمامًا لا يحمل حتى ملفًا واحدًا مهملًا كأنما قام شخص باعادة تهيئة له وإعداد نظام تشغيل جديد عليه وتركه خاويًا!!!

شعر بغُصَّةٍ كبيرةٍ بعدما كان شعورُ الانتصار يخالجه، والقرب من الفوز يدغدغ مشاعره، لقد ضاع كل شيء هباءً منثورًا، الجهد والمال والألم، ضاع الأمل في علاج زوجته التي لا يدري هل يسعى الآن لإيقاظها لتكتوي بآلامها وليتلظى جوارها بآلام العجز والقهر؟

شعر بصداع هائل لم يمحُه إلا مجالستها والإمساك بيدها الرقيقة والنظر إلى ملامحها الهادئة المستكينة تمامًا لمصيرها وأجلها الذي اقترب.

*****

مفكِّرة شيماء:

((الآن حملت لقبًا يتيه به البنات فرحة، ويقسم الجميع بأنها الفترة الذهبية الجميلة التي لن تتكرر، ويجب استثمارها بأقصى ما يكون، ولكن .. كانت عندي غصةٌ دفينةٌ، مثارها شيء واحد؛ وهو أن مشاعري قد تلوثت من قبل، ولم تعد بالصفاء الذي يجعل الجدول جارٍ بلا أي معوقات، لو لم أعرف سعداوي بمثل ما عرفته لاكتمل انبهاري بهاني وزاد إعجابي به إلى القمة، وأصبح هو الملك المتوج الذي لا أرى في الكون غيره، ولكن للأسف ورغمًا عني ظلَّ هاني في خانة المقارنة معه أمدًا من الدهر، طريقته في الكلام، ممازحته، وردود أفعاله، كل شيء حتى ملبسه وطريقة سيره، وعندما همست لي لمى قائلة:

- هل انتهى سعداوي بمثل هذه السهولة؟!

رددت عليها بصرامة قائلة:

- وماذا بيني وبين سعداوي هذا؟

ضحكت ضحكةً قصيرةً تحمل الكثير من المغزى وقالت:

- لا شيء!

ولكن بالفعل كانت تلك الصرامة رد فعل صريح وقوي عن أنه كان له الكثير من الأمور معي، وكما قلت من قبل المعايشة كفيلة بعلاج ذلك وزرع محبة هاني في قلبي وجاء ذلك سريعًا وبأزمة ما تمنيت أن تحدث أبدًا.

في هذه الليلة لم تكن عندي أي نوبة عمل، تناولنا طعام العشاء سويًّا أنا وأمي وأبي وتضاحكنا كثيرًا وفي النهاية دعونا لخالد أخي الذي نفتقد قهقهته المجلجلة، وبينما كُنتُ أساعد أمي في محو آثار تناول الوجبة، أخذت تحدثني عن الآنية التي ستحضرها تجهيزًا لمطبخي الذي يجب أن يكون فخمًا يليق بطبيبة أستاذة في الجامعة، وأنا أقول لها لا تبالغي يا أمي لن يفرق مذاق الطعام إن كان في طبق من ذهب أو خشب، ولكنها مصرة على رأيها؛ الناس سينظرون ويتحدثون، وبينما هي مندفعة في حديثها توقفت قليلًا وقالت لي:

- هل لديك أي دواء للحموضة؟

قلت لها مازحة:

- طعامك الغني بهاراته؛ أخيرًا صرت أنت ضحيته.

قالت وهي تحاول الضغط بقبضتها أسفل قفصها الصدري بالمنتصف:

- لتكُفّي عن لماضتك هذه ولتعملي بشهادتك.

لم أتردد في الذهاب إلى الصيدلية وجلب أحد أفضل أنواع العلاجات المقاومة لزيادة إفراز الحامض بالمعدة، تناولته وقالت بأنها ستستريح قليلًا، ظللت بجوار أبي الذي كعادته أخذ يمسح على شعري كأني ما زلت طفلته الصغيرة وقال لي:

- هاني هذا طيبٌ جدًّا يا شيماء حافظي عليه، لا تبالغي في أي إنفاق مادي أمامه حتى لا يشعر بالعجز، فلا يخرج بعقدة منك يحاول تعويضها بعدما يتيسر له الرزق الواسع.

كان كلامه عميقًا جدًّا، كأنما درس علم النفس البشرية وحصل على أعلى الشهادات الدراسية فيها، ولكن مع سنوات عمره المديدة تكون الخبرة العملية أفضل ألف مرة من كل الشهادات، استكنت إلى كتفه كقطة تتمسح في صاحبها وقلت له:

- لا تقلق يا أبي.

وبعد قليل قام عازمًا على النوم لكي يتمكن من الاستيقاظ فجرًا كعادته، ولكن ما إن ولج غرفته حتى طرق أذني صيحته مناديًا باسمي، فاندفعت إليه لأجد سبب صرخته المستنجدة بي، كانت أمي جالسة بمنتصف السرير وجهتها غارقة في فيضان من العرق رغم برودة الجو وأنفاسها تكاد تنالها بصعوبة بالغة، وتمسك منتصف صدرها بقوة وتتحشرج بأحرف غير مفهومة، تنطق بعجزها التام عن الكلام، خبرتي كطبيبة دفعت بالتشخيص السليم السريع والذي مثَّل فارقًا، لقد كانت أزمةً قلبيةً حادةً، ولأن الأذى عندما ينال من أقرب الناس إلى قلبك يفقدك كل ما اعتدت عليه من هدوء وتركيز وتصرف محسوب، لم يكن أمامي سوى هاني الذي اتصلت به وبأحرف متقطعة لاهثة شرحت له حالة أمي، فتصرف هو التصرف السليم والمناسب جدًّا، اتصل بأقرب نقطة إسعاف لنا لترسل سيارة مجهزة، وصلتنا في خلال ربع الساعة لتستقر أمي بها وتبدأ في استنشاق الأُكسجين مع تعاطي بعض العلاجات السريعة المبدئية حتى يكتمل التشخيص عقب الوصول للمستشفى الذي عندما ذهبنا إليه كان هاني قد أعد موكبًا حافلًا للاستقبال، طاقم تمريض ممتاز وأطباء رعاية القلب الذين تصرفوا بمنتهى السرعة والحنكة وتمَّ تشخيص حالة أمي في خلال عشر دقائق بأنها جلطة بالشريان التاجي، ولأن التشخيص والتصرف كان سريعًا، فقد أمكن العلاج لها دون جراحة، وذلك بتعاطي حقنة لإذابة هذه الجلطة والتي انطلق هاني بسُرعةٍ صاروخية لجلبها بنفسه من إحدى الصيدليات الكبرى فور اكتشافه عدم توفُّرها بالمستشفى، ورغم غلاء ثمنها نظر لأبي بلَومٍ عندما عرض عليه أن يدفع هذا الثمن، لقد كان هاني هو الملاك الذي أنقذ أمي بعد فضل الله في هذه الليلة، قبلته أمي ودعت له، ونظرت نحوه بإعجاب ورضا كبيرين)).

*****

انتهى سعداوي من محاضرته الموكل بها أمام طلاب الفرقة السادسة بكلية الطب، واستقر بمكتبه يدرس الملف الأخير، والذي حصل عليه بصعوبة، والمتعلق بدراسة خاصة عن أنسجة المخ قام بها عالم أمريكي يحاول فيها أن يظهر تباين الخلايا من منطقة للأخرى على حسب الوظيفة التي تؤديها، ما زال الأمل باقيًا يتردد بصدره ومرتبطا بأنفاسه، لن يمل البحث ولن يستكين لليأس الذي أحاط به بعد عودته من السويد منذ شهر، حياته بدأت تسترجع طبيعتها القديمة ببطء، يؤدي مهامه بالجامعة ومستشفاه الخاص وعيادته التي عاد عبد الكريم ليتسيدها، وفي آخر اليوم يذهب ليجالس زوجته ساعة على الأقل، ثم ينصرف بعد أن يلثم كفها وجبهتها بقبلة تحمل كَمًّا يعتمل به من حب واشتياق إليها، ويتركها لتنعم في غيبوبتها التي لا يدري ماذا يتكشف لها فيها الآن، دخل الساعي إليه ليضع أمامه مشروبه المفضل ومظروفًا كبيرًا قائلًا بأنه وصل إليه عبر البريد، شكره سعداوى وأغلق الملف الذي يعمل عليه، ونهل أول رشفة من مشروبه وهو يطالع العناوين الأجنبية على جانبي المظروف، وفتحه ليجده دعوة لحضور مؤتمر طبي بالعاصمة اليابانية طوكيو، هم بأن يلقي به جانبًا؛ فهو ليس بحال تسمح له بحضور أي مؤتمرات الآن، ولكن عندما قرأ محل الإقامة الذي سينزل به أيام المؤتمر هناك انعقد حاجباه بقوة، وقرَّب الورقة إلى وجهه، كأنما يريد التأكد من صحة ما قرأ: المعتاد في جميع مؤتمراته السابقة أن تكون الإقامة في أحد الفنادق الكبرى والشهيرة، ولكن ما هذا الذي يقرأه؟!

فالإقامة كما هو مكتوب أمامه ستكون في « برج السرطان «

الكلمة طرقت أذنه من قبل ولكن لا يذكرها، ظل يعتصر ذاكرته حتى وصل إليها، فقد كانت ضمن الحديث المخبول مع عم أكيرا في منزله الياباني العتيق، وذلك عندما أخبره بأنه برج مولده والآخر قال إن له رحلة إليه، لم يفهم مقصده ولم يحاول بغية الانتهاء إلى ما جاء إليه ظنًّا بأن الرجل يهذي!

هل يعقل أن تكون هذه الدعوة مرتبطة بجملة الرجل الهزلية تلك؟

هُنالكَ الكثير من النقاط العجيبة التي مر عليها في رحلته دون تبيان لها، كيف فتحت غرفة فندق أكيرا له تلقائيًّا؟

كيف ومن محى كل محتوى حاسوب أكيرا؟

هذا الرجل العجيب كيف بمنتهى اليُسر يذكر اسم الفندق ورقم غرفة أكيرا بكيرونا؟

هناك حلقة مفقودة يمكنها ربط كل ذلك ببعضه البعض.

ولأن التعلق بقشة يمنح الغريق الكثير من الأمل الذي يبقيه أمدًا على قيد الحياة، تعلق سعداوي بهذه القشة وقرر أن يجدف بها، وقابلته العجيبة الأخيرة لتؤكد له صحة ما وصل إليه، حينما بحث عن رقم هاتف يمكنه به محادثة القائمين على المؤتمر، وجد الخطاب بالكامل لا يحوي أي أرقام للهواتف أو الفاكسات ولا حتى عنوان بريد إلكتروني أو صفحة لهم بشبكة الإنترنت؛ مخالفين بذلك كل معلوم عن أهون مؤتمر قد تقيمه أقل وحدة صحية بصعيد مصر!

انتعش الأمل بقلبه الذي تزايدت ضرباته، رحلته السابقة وجهده الكبير فيها لم يضيعا هباء، لن يتوانى عن السعي إلى الأمل الأخير حتى لو كان بمثل هذا الغموض، وبعد يومين كانت رحلته الثانية إلى مطار طوكيو وهناك وكما قيل له بالرسالة سينتظره مندوب للشركة المنظمة للمؤتمر، وجده يحمل لافتةً كبيرةً عليها اسمه، ابتسم له بودٍ وصَحِبَهُ لسيارةٍ سياحيةٍ فخمةٍ، وعندما استقر بها وبدأت رحلة مسيرها، اتسعت ابتسامته بقوة عندما هبط الزجاج القاتم الفاصل بينه وبين سائق السيارة، ليلتفت مجاور السائق ناظرًا إليه وقائلًا:

- أهلًا دكتور سعداوي.

وكان سبب اتساع بسمة الأخير هو أن ذلك المجاور لم يكن سوى أكيرا!

*****

في غرفة جيدة بأحد فنادق طوكيو استقر المقام بسعداوي مع أكيرا الذي كان حلم اللقاء به قد ذوي تمامًا، كان مرآه سبب السعادة البالغة التي ألمَّت به على إثر تحقق يقينه بأن هذه الزيارة إنما هي لأجل البحث الكبير الذي قام به.

ارتشف أكيرا رشفةً من مشروبه الدافئ وقال:

- القصة باختصار أنك دون أن تدري شاركت في إحدى أكبر الألاعيب المخابراتية العالمية.

اتسعت عينا سعداوي دهشة وتوقف الكوب قبل أن يبلغ فمه دفعة واحدة حتى كاد يسقط بعضًا من محتواه وهز رأسه قائلًا:

- ماذا؟!

ابتسم أكيرا بوقار واستطرد قائلًا:

- أنا نفسي لم يكن ببالي أن يصير بحثي الضئيل مثار كل ذلك، وأن يكون ضمن الصراع الإستراتيجي بيننا وبين الولايات المتحدة، كُنتُ قد انتهيت إلى تحديد صبغة خاصة للخلايا التي تعد مسئولة عن غياب الألم، ولكن بعد موتها، فقد فشلت في تحديدها في محاولة سابقة مع الأحياء.

استوقفه سعداوي قائلًا:

- هل ذلك يعني بأنك من قتل ذلك الشاب بالفعل؟

هز أكيرا رأسه نافيًا بقوة وقال:

- هذه التهمة كانت إحدى وسائل الضغط والصراع الذي لم ينتهِ بعد، فعقب الوصول لتلك الخلايا فوجئت بعالم أمريكي كبير يعرض عليَّ مشاركة ما وصلت إليه مقابل مبلغ مالي هائل، فرفضت ذلك، بعدها بساعة فوجئت بمن يتصل بي من أهل فتينجي المقربين يخبرني بأن هُنالكَ بلاغًا وصل يتهمني بقتل الشاب المسكين مع دلائل قوية تؤكد ذلك، ولأن حياتي مباشرة وليس بها الكثير من التعقيد لجأت للحيلة السهلة جدًّا، كُنتُ بأحد المطاعم وقتها ومن الخطر العودة للفندق فلربما كانت هناك قوة تنتظر اعتقالي، فذهبت إلى سفارة بلادي مباشرة وعرضت عليهم الأمر بشتى تفاصيله، فتمَّ إخراجي بسُرعةٍ من هناك، ولكن باسم مستعار وجواز سفر دِبْلُوماسِيّ يسَّر كل المعوّقات التي قد تواجهني في ذلك، وتمَّ تدارُس الأمر على جميع أوجُهِهِ، المخابرات

الأمريكية تريد نتيجة هذا البحث؛ لأن الوصول لكيفية محو الآلام الجسدية بشكل مكتسب لا يؤثّر على بقية الوظائف، يصنع لهم عملاء وجنود لا يمكن استخراج معلومات منهم مهما تعرضوا لأبشع وسائل التعذيب، وبالتالي غرفتي بالفندق الآن تعج بهم أو بوسائل مراقبتهم الإلكترونية، بحثي كان مكونًا من جزئين، الأول ملف اعتيادي جدًّا به خطة البحث ودراسة نتائج الفحص الطبي المتكرر للأحياء، والثاني هو أخطرهم والمتعلق بالصبغة الخاصة المستخدمة في كشف الخلايا المسئولة، وهذه قمت بتسجيلها صوتًا وصورةً أثناء تشريح الجثة وفيها السر الحقيقي، ولأن التكنولوجيا اليابانية تسبق الأمريكية في بعض المجالات، وخوفًا من سرقة البحث عقب الانتهاء منه قمت بعمل تشفير لهذا الملف بحيث يظهر كملف فيديو اعتيادي لأحد الأفلام اليابانية الشهيرة، وبهذا كان اليقين بأن المخابرات الأمريكية بكافة تقنياتها لن يمكنها كشف هذا السر، وزاد هذا اليقين عندما سددوا حجز غرفتي لعامٍ قادمٍ وظلوا مرابضين عندها، مما يعني بأنهم ينتظرون عودتي، وكمحاولة لصرفهم كانت خطوة نشر نتيجة البحث في مؤتمر الصين دون كشف سر الصبغة، وكأني أقول لهم البحث للجميع وليس لكم، ولكن فشلت الحيلة وما زالوا بنفس تحفزهم وانتظارهم، وعودة حاسوبي إليَّ أصبح مهمةً وطنيةً كبرى يجب أن تتم بذكاء وبراعة وتحت أنف الأمريكان دون أن يشعروا، ولأن المخابرات اليابانية القديمة بكل أمجادها تمَّ حلها وتفتت جميع الأجهزة اليابانية الأمنية عقب الحرب العالمية الثانية، ولم يعد إلا بعض أجهزة الحماية الداخلية فقط، وعقب مقتل بعض مواطنينا بسوريا على يد داعش وعدم قدرتنا على فعل شيء لهم سوى الاستعانة بالمخابرات التركية لإعادة جثامينهم إلينا، بدأ التفكير في إنشاء جهاز مخابرات خارجي قوي يحمي مصالحنا، ولكن يجب أن يتم ذلك سرًّا ودون إعلان أو ظهور واضح، وكانت عملية استعادة حاسوبي هذه أول اختبار له، وكان ظهورك هو الخيط المدهش الذي بنيت عليه الخطة بأكملها، عقب انصرافك من زيارة عمي أخبرني بمدى حرصك على الوصول إليَّ، وأن الأمر بالنسبة لك حياة أو موت.

استوقفه سعداوي ليلتقط أنفاسه اللاهثة أمام كل هذا السيل من المعلومات الغريبة التي تكشف له عالمًا آخر موازيًا لم يكن له علم به، وقال له:

- عمك هذا كان من أغرب من تعاملت معهم، قال لي أشياء كثيرة لا أعلم فحواها، وحديثي معه كان مقتضبًا، فكيف وصل لهذا الحكم عني، وكيف علم بلغتي وأجاد التحدث بها؟

ببسمته الهادئة المستمرة قال أكيرا:

- عمي من الجيل القديم الذي يملك مواهب خاصة وقدرات كثيرة غير مألوفة، ستعلم بعضها فيما بعد، المهم أنه لديه ما تطلقون عليه في ثقافتكم بالفراسة، وحكمه هذا ما جعلك داخل العملية دون علمك، كانت الخطة تعتمد على مراقبتك جيدًا، وبالطبع هناك ستسأل عني بلهفة فيتطوع أحدهم أن يمنحك مفتاح غرفتي بمقابل مادي، ولكن سبقنا الأمريكان بفتح الغرفة لك إلكترونيًا وتركك تدخل المصيدة برجليك كي تقودهم إليَّ، وتحقق المراد تمامًا عندما حملت أنت حاسوبي معك، وتركه الأمريكان لك لأن معهم نسخة من جميع محتواه، وكان سجنك والتحقيق الصارم معك لمدة شهر بإشراف أمريكي مستتر خرجوا منه بنتيجة أنك لن تفيدهم بشيء، فأطلق سراحك مع مراقبة لمدة شهر، وبعد انتهاء الشهر بلا أي جديد انصرفوا عنك تمامًا، فبدأنا نحن في التواصل معك.

ضحك سعداوي قائلًا:

- ولكن عندي لك مفاجأة كبيرة، يبدو أن جهازك كان يحمل برنامجَ تدميرٍ ذاتيٍّ، فعند فتحه لم أجد به شيئًا.

جاوب أكيرا ضحكة سعداوي بمثيلتها قائلًا:

- لقد استرددنا الحاسوب منك في مطار أمستردام أثناء استراحة السفر في هولندا، والجهاز الذي كان معك بحقيبته هو محاكٍ كامل التشابه له.

كانت هذه هي المفاجأة الأخيرة لسعداوي والتي علم بها كيف أن الحياة قد لا تبدو أبدًا بمثل اليسر الذي يراه البعض، وهزيده في تعجبٍ قائلًا:

- ما دام الأمر قد انتهى وتحقق النجاح الكبير لكم، ما هي حاجتكم إليَّ ولِمَ اتصلتم بي؟

اعتدل أكيرا وقال بمنتهى الاهتمام:

- نريدك في استكمال البحث.

نظر إليه سعداوي متسائلًا فاستطرد الرجل قائلًا:

- لقد تمَّ اختبار الصبغة على خلايا ميتة وبحقن مباشر تحت الرصد الميكروسكوبي، ولكن لم تتم مع أحياء ولم نر أثرها، وبالتالي أنت صاحب حالة خاصة جدًّا لن تتكرر، عندك المريض المستعد للتجربة وتمتلك البراعة الجراحية لفعلها بنفسك، ولديك الاهتمام المبالغ في النجاح، وبالتالي كل العوامل المثالية المطلوبة للتجربة متوفِّرة بك؛ لذا سوف أمنحك كل خبرتي ونتائج كامل بحثي السابق، وسوف يعطيك عمي الصبغة المطلوبة لتقوم بتجربتك مع شرط تصويرها بالكامل، وإعطائنا نتيجتها مصورة ومكتوبة.

صمت سعداوي هنيهة متفكرًا، الصفقة عادلة جدًّا ستحقق لكل طرف بغيته، ولكن استوقفته جملة عابرة تكلم بها أكيرا فنطق قائلًا:

- ما شأن عمك بهذه الصبغة؟!

هز أكيرا رأسه مبتسمًا وقال:

- قلت لك من قبل أنه ليس رجلًا اعتياديًّا، عندنا قديمًا ما يشبه الإبر الصينية، كان هو أحد روادها، ولديه مادة كيميائية خاصة يرفض مشاركتها مع مخلوق، هذه المادة كانت تغمس فيها تلك الإبر، وما إن تمس خلايا عصبية معينة حتى تقوم بتخديرها بشكل كامل، هذه المادة هي التي استخدمتها واضطررت للسفر مرتين أثناء بحثي بالسويد كي أحصل عليها منه، حاولت خلطها بسائل يمكن شربه وانتظرت أن تظهر نتيجة خاصة عبر أشعة الرنين المغناطيسي بالمخ على الأحياء وفشلت، ولكن نجحت بقوة عند حقنها مباشرة إلى خلايا المخ الميت.

بمنتهى الحسم وبلا تردد نطق سعداوي قائلًا:

- أنا موافق تمامًا على هذه الصفقة.

هز أكيرا رأسه برضا وقال:

- كُلِّي ثقة في ذلك، ستحضر فعاليات المؤتمر بشكل طبيعي، وبعد عودتك للفندق ستكون مدارستنا الخاصة سويًّا على كل خطوات بحثي السابق ورسم خطواتك المقبلة.

- اتفقنا.

*****

مفكِّرة شيماء:

((دخلنا المرحلة الذهبية في الخطبة، زال ترددي وتخوفي نحو هاني تمامًا، وبدأت في تطويع مشاعري وتحسين المستقبلات لدي وتهيئتها لأن تتلمس فيه الجيد وتزيده بريقًا، وتتغاضى عن بعض الهنّات الضئيلة التي قد تقع كل حينٍ وآخر، وبهذا بدأت في الارتشاف من رحيق سعادة المشاعر الجميلة التي بدأت تتدفق بيننا، مع هداياه الزهيدة كُنتُ أشتاق للكلمات المرفقة بها وكانت تروي بداخلي تعطشًا خاصًّا لم أكن أعلم به، إنها فطرة وطبيعة زرعها الله فينا كي تستمر الحياة بنا، فعندما أخبرنا الخالق عز وجل بأنه لولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، كان من هذا الدفع المخالطة والمعايشة والتفاعل الدائم بينهم، وذهبت الذروة لأن تكون إحدى معجزاته وآياته في الأرض أن جعل بين الزوجين مودةً ورحمةً، وأصبح كل منهما سكنًا للآخر، لم أسعَ من قبل ولا سمحت للآخرين بتجاوز منطقتي المحرمة، ألا وهو قلبي العزيز الذي جعلت له حمى خاصًّا كان سببًا حقيقيًّا في أن يقيَه الكثير من الشرور، الآن دخل هاني بيسر عندما فُتِحَت له الأبواب على مصراعيها عقب طرقها بالطريقة السليمة، عندما قال لي كلمة أحبك، هي كلمة معتادة من أحرف يحفظها الجميع وتتردد أمامنا ليل نهار حتى أنها أصبحت من أيسر المستهلكات، ولكن لأنها كانت المرة الأولى التي تطرق

أذني موجهة لي، وقلبي متفتح لشذراتها، روته بعد طول جدب فجعلته يخفق بسُرعةٍ كادت تخل توازني، فلم يكن مني إلا الارتباك الشديد واحمرار الوجه الذي احتبست به كل الدماء من ذورة الخجل والسعادة والبهجة غير الآثمة التي احتلتني، ولم يعكر صفو ذلك إلا ظهور سعداوي أمامي، والذي جمعني العمل به لنوبة أو نوبتين كان أصعبهما على قلبي تلك التي كنا بها وحدنا، لم أره بمثل هذا الارتباك والتردد من قبل، الهدوء المعتاد والتفكير المنطقي السَّلس هجراه في ذلك اليوم، كان محتقن الوجه، عصبي الردود، كثير الخطأ حتى في الأمور الطبية، كُنتُ أحاول قدر استطاعتي صرف ذهني تمامًا عن كوني سبب ذلك، لا أريد هذا التفسير ولا أرتاح له حتى لو كان من المبهجات لغيري، ولكنه يسوؤني جدًّا، لن أزداد قيمة عندما أرى الرجال يتقاتلون من أجلي وعندما يفوز أحدهم بالقرب تتحطم حياة الآخر، أعلم قيمتي الحقيقية ولست في حاجة لدليل كهذا ليزيدني شعورًا بها، وفي الوقت نفسه لو كان ذلك حقيقيًّا لن آمن شر نفسي ووسوسة الشيطان فيما بعد لأن أقارن بينه وبين هاني مرة أخرى، وأنا التي استقرت مشاعري واطمأنت بعد أن تخلصت من ذلك وانتهيت منه، ولكن ما عجزت عن محوه هو الشعور بالأسى لأجله، وجاءني التساؤل الذي أراحني .. ماذا بيدي لأقدمه له؟)).

*****

القطار نفسه الذي استقله سعداوي من قبل للسفر ٧ ساعات من طوكيو إلى حيث مسقط رأس أكيرا، وكلمات الأخير ما زالت تتردد برأسه:

- يجمعني بك في هذا البحث ميثاق الشرف، سيظل طي الكتمان حتى نخرج منه بفائدة حقيقية للبشر يكون نفعها أكبر من ضررها، الآن وبعد أن وصلت لكل ما تريد ننتظر منك النتائج، ولكن سيلزمك رحلة شاقة لا بدَّ من أن تخوضها بنفسك، ستسافر إلى عمي حيث التقيت به في المرة السابقة، وأثناء سفرك لا تكف عن محاولات الاتصال برقمي القديم وإرسال البريد كأنك ما زال الأمل يطرق بابك في أن تجدني، فكل ذلك قد ترصده المخابرات الأمريكية، ويكون تفسيرًا جيدًا لرحلتك

الثانية هناك، فأنت حضرت المؤتمر الذي دعيت إليه على نفقة إحدى شركات الأدوية، ولم تحب تضييع الفرصة فقررت استكمال البحث عني عسى أن تجدني فعدت لمنزلي، وهناك سيكون عليك تحمل بعض النزق من عمي، فهو له فلسفة خاصة في التعامل مع البشر، وقد يخوض معك حديثًا فلسفيًّا يخرج منه بنتيجة يريدها؛ تدفعه لمنحك أحد أهم أسرار حياته وقد حصد الثمن بهذه النتيجة، وعقب حصولك على ما أردت يمكنك العودة لبلدك والبدء في جراحتك التي ننتظر نتيجتها على أحر من الجمر، كُنتُ أتوق لمشاركتك هذه الجراحة ولكن من الخطر ظهوري الآن على حسب التوجيهات الأمنية لي.

عندما وصل سعداوي للمنزل العتيق كان له الكثير من الألفة هذه المرة، لم يطرق الباب كما السابق، وإنما دفعه وأغلقه من خلفه وسار مختالًا متطلعًا لجمال الطبيعة من حوله، حتى وصل إلى المنزل الذي رآه كقصرٍ مُنيَّفٍ ووقف أمامه عاقدًا ساعديه أمام صدره مبتسمًا وهو يقول:

- كيف ستظهر لي هذه المرة؟!

سمع صوتًا هامسًا بجوار أذنه يقول له بالفصحى:

- من الخطأ أن تأمنَ للذئب في بيته.

اتسعت ابتسامته وهو يلتفت إليه قائلًا:

- ولكني في بيت الكاهن.

ارتفعت قهقة الرجل عاليًا وهو يقول:

- ممتاز، لقد أصبحت على أتم الاستعداد للرحلة .

قال سعداوي بيُسر:

- مستعدٌّ جدًّا، أعطني فقط ما جئت لأجله وسوف أنطلق.

ارتفعت قهقهة الرجل أعلى من السابقة وقال:

- لقد نسيتَ الرحلة التي أخبرتك عن عودتك من أجلها.

ارتبك سعداوي وشعر بأن الرجل سيتلاعب به وتذكر وصية أكيرا بأن يتحمله، فأخذ نفسًا عميقًا وقال:

- حسنًا فلتذكرني.

- رحلتك إلى برج السرطان.

احتار سعداوي عن أي رحلة عجيبة هذه يتحدث الرجل، ولكن لكي ينتهي من خبله قال:

- حسنًا أنا مستعد.

أشار الرجل نحو البيت قائلًا:

- فلترتقِ الخطوة الأولى نحوه، ولا تنسَ أنك قلت مستعد.

التهم التساؤل جنان سعداوي وهو يحاول استنتاج مقصد الرجل ولم يفلح، فقرر استكشاف ذلك، فانطلق أمامه ليدخل إلى القاعة الفسيحة التي رآها من قبل وبرفقته الرجل الذي مدَّ يده إليه بكأس قائلًا:

- فلترتشفه ببطء، فهو ما سيعينك في رحلتك.

نظر سعداوي إلى محتواه فوجده سائلًا شفافًا ظنه ماءً فتجرعه دفعة واحدة، ولكن وجد به لسعة خفيفة لمست طرف لسانه، فتجاهلها ومنح الرجل الكأس الفارغة والتي لا يدري متى ومن أين جاء بها وقال له:

- حسنًا ماذا بعد؟!

قال الرجل بعمق:

- تذكر أن ألد أعدائك هي جوارحك التي تنقلب عليك.

- حسنًا لن أنسى ذلك، شكرًا، ماذا بعد؟

- ستكون وحيدًا ولن ينقذك إلا قلبك.

obeikandl.com

- هل من الممكن أن أبدأ تلك الرحلة؟

- وتذكر أنك باحث عن الحقيقة.

- أقبِّل يديك كفى.

ابتسم الرجل وأشار نحو سلم جانبي قائلًا:

- تفضل من هنا.

نظر سعداوي نحو السلم الذي لم ينتبه له من قبل، والذي يفضي للطابق العلوي، وقال بتلقائية:

- البرج بالأعلى هو برج السرطان؟ .. هل سأجلب لك منه شيئًا؟

حافظ الرجل على ابتسامته وقال بعمق وبصوت له صدًى خاص:

- اذهب وامكث به نصف الساعة، وحاول أن تعود سالمًا.

كاد سعداوي يقهقه هذه المرة ولكن رد عليه قائلًا:

- حاضر يا جدي، السلام عليكم.

وبخطوات سريعة ارتقى ذلك الدرج في رحلته إلى برج السرطان.

*****

مفكِّرة شيماء:

((ناقش هاني رسالته التي تمَّ قبولها لنيل درجة الماجستير، وكان ذلك في شبه حفلٍ بهيجٍ جمعنا بأهله، كان متألقًا باسمًا لبقًا، ورغم أن المناقشين لرسالته نالوا من كل حرف كتبه في هذه الرسالة حتى يخيل لمن حضر المناقشة بأنه سيتم شطبه من نقابة الأطباء، إلا أنهم منحوه القبول بدرجة الامتياز، وكانت كبرى العجائب بالنسبة لي والتي لم يمكنني تفويتها وتفكرت فيها كثيرًا، هو حضور سعداوي للمناقشة، ومساعدته في الإعداد لها وكان باديًا عليه السعادة لأجل زميله، وقعت أعيننا في مصيدة الالتقاء مرات كُنتُ أهرب منها بارتباك شديد، مع جهد مضاعف لكبت وتقييد هذا الارتباك

أو محو آثاره بسُرعةٍ قبل أن يلحظها، كُنتُ أشغل نفسي عنه بالتركيز في مناقشة هاني والمعلومات الطبية الثرية التي تنساب من فمه عند سؤاله أو الاعتراض على شيء كتبه برسالته، كُنتُ أبحث عن الإعجاب وأتعلق به لكل كلمة ينطقها شاهدة لبراعته ودرجة تحصيله الجيدة وقدرته المدهشة على ترتيب أفكاره والتعبير عنها، ولكن كانت درجة التشويش عالية جدًّا، لقد أمسكت بنفسي أفعل ذلك بمبالغة لكي أهرب من ذلك الجالس بالصف الأول على يميني، وأعترف بأني تعمدت منح هاني هديته الخاصة أمام الجميع عقب إعلان نتيجة المناقشة، تقدم منه زملاؤه مهنئين ومُسلِّمين عليه، وسعداوي بالغ في السلام باحتضانه كأنما هو أقرب إخوته وأكثرهم محبةً إلى قلبه، فتأخرت عقب سلام والديه وأخوته، وتقدمت نحوه مبتسمة بود، وقلت له:

- ألف مبروك يا أعظم طبيب في الدنيا.

كانت أمارات السعادة جلية على محياه إثر كلمتي، فمددت يدي إليه بهديته المغلفة بعناية شديدة وقلت له:

- عقبي هدية الدكتوراه إن شاء الله.

فقال لي بتهدج ناتج عن سعادته القصوى:

- أنتِ أعظم هدية لي في حياتي.

ارتبكت وشعرت بالخجل على إثر مجاملته الجميلة، ولكن أعقبها سعادة مغايرة عندما لمحت وجه سعداوي أثناء استدارتي وملامحه تقاتل التمعر، كُنتُ أعلم بأن سعادته هذه زائفة، والآن تيقنت)).

*****

نفس الطاولة البيضاوية المميزة لغرفة اجتماعات مستشفى الصَّباح، يجلس على أطرافها أطباء جراحة المخ والأعصاب ورائحة القهوة النفاذة المميزة لاجتماعاتهم تعبق أجواء الغرفة من حولهم، وسعداوي يقف عند لوحة الأشعة المضاءة ممسكًا

بمصباح الليزر ليؤشر به إلى نقاط محددة للأشعات المعروضة على المصباح أمامه واختتم مقولته قائلًا:

- وبهذا إذا قمنا باستئصال تلك الخلايا بجراحة ليزرية ميكروسكوبية دقيقة، أغلب الظن أن الجسد سيفارقه الألم للأبد.

بهدوئه المعتاد نطق رئيس القسم قائلًا:

- هذه جراحة استكشاف تجريبية، هل أنت متيقن من تحمل كل تبعاتها؟

توقف سعداوي قليلًا يطوقه الصمت وهو ينظر نحو أرض الغرفة ثم رفع رأسه قائلًا بعمق:

- بالنسبة لي لا بديل عن ذلك.

- أليس من الأفضل إيقاظها من غيبوبتها لمعرفة رأيها؟

نطق سعداوي بحسم قائلًا:

- ومنذ متى والمريض في مصر له رأي أو مشورة، ولو حدث بشكل صوري يكون هناك إيعاز منَّا له بأن القرار الذي نبغيه لا بديل عنه فيوافق عليه مُرغمًا، دَعْكَ من هذه الشكليات يا دكتور ولنستمر في أعمالنا وأبحاثنا، المريض في مصر بلا حقوق.

استاء الرجل من رد سعداوي الجاف والذي يخالف طبيعته تمامًا فلم يتمالك نفسه من الرد قائلًا:

- منذ عودتك من اليابان ولم يتغير شعر رأسك فقط، إنما الكثير مما بداخلها.

مسح سعداوي شعر رأسه والذي أصبح أشيبَ بالكامل في مشهد عجيب فشل الجميع في معرفة سببه، فقد ذهب في رحلة لليابان حاملًا إيَّاه لامعًا بلونه الأسود الناعم والمصفف بعناية، ليعود بعد أسبوع واحد وقد فارقه السواد للأبد، وأصبح اللون الأبيض هو المميز له، وعندما مازحه البعض مستعلمًا عن السبب، كان رده الجاف الصارم بأن هذا أمر لا يعني السائل!

انتهى الاجتماع بعد تحديد كل المخاطر المحتملة للجراحة، ووضع البدائل والاستعداد لمواجهتها، وتمَّ اختيار الفريق المساعد لسعداوي، وكان من أهمهم مصورٌ محترفٌ يعمل بالكاميرا الحديثة التي جاء بها سعداوي من اليابان والتي سترصد كل ما يجري تحت الميكروسكوب مع تحكم إلكتروني بعيد يقوم به هذا المصور عبر شاشة العرض الكبيرة التي ستظهر له أدق خطوات الجراحة، وبجواره طبيب متخصص يرشده لما يجب التدقيق فيه بشكل أكبر فيزداد تركيز العمل عليه.

*****

نظر سعداوي إلى وجهها الصامت الساكن بهدوء، هم أن يقبل جبهتها لولا قناعه المعقم، كادت تتفلَّت منه دمعة وهو يتساءل ترى هل ستستيقظ مرة أخرى أم لا؟ هل سيرى بسمتها الهادئة وصوتها الحنون لتغمر حياته بالمحبة التي لا تجيد سواها؟

هذه الجراحة ليست لإنقاذ حياتها إنما لاستعادة حياته هو، لا ينكر الفضول العلمي الذي يعتريه لمعرفة أثر هذه الجراحة، ولكنه بذل كل وسعه لمحو كل مخاطرها، لدرجة أنه الآن يمكنه فرز ملايين الخلايا بمخها لشرح وظيفة كل خلية فيه، لو كانت هذه العملية قبل شهر ما تجرأ على البدء فيها بنفسه، ولكن بعد الهول الذي لاقاه في برج السرطان، خرج بتغير كبير طرأ على كل ذاته وليس جفاف حديثه أو شعره الأشيب فقط، أشار له طبيب التخدير بأن كل المؤشرات صالحة لبدء العمل، تلى بعض آيات القرآن الكريم وبدأ في العمل، ارتعشت يده وهو يقترب بالمبضع منها، فتوقف قليلًا واستنشق الكثير من الهواء المكتوم خلف قناعه، وأغمض عينيه برهة استعاد فيها الكثير من المشاهد التي بثت فيه ثباتًا كبيرًا، وأخيرًا جال بمبضعه في رأسها، نظر إلى خلايا مخها التي تحمل بداخلها كل الذكريات المشتركة والجميلة بينهما، تحمل بداخلها كل الأفكار التي تجادلا فيها، يرقد فيها الكثير من الآمال والأحلام التي لا يدري هل ستستمر أم سينقطع بها السبيل بعد قليل!

وطوال ساعات خمس كانت يده ثابتة دقيقة تعمل بمنتهى البراعة كأنما قد أجرى هذه العملية عشرات المرات من قبل، نجح بامتياز في سلخ مشاعره أثناء العمل،

تناسى تمامًا أن هذا المخ الذي يعمل به إنما يحمل بداخله كل ما يهمه بدرجة كبيرة، لو انصاع لخواطره ومشاعره ما استطاع بذل معشار ما فعل في هذا العملية الدقيقة النادرة، وعندما انتهى ورغم إرهاقه الشديد على إثر المشقة الكبيرة أثناء الجراحة ظلَّ ملازمًا لها ينتظر إفاقتها وسماع صوتها الذي غاب عنه منذ أشهر، بذل طبيب التخدير كل وسعه حتى صدرت عنها كلمة آه، كانت في أذني سعداوي أكثر طربًا من كل ما جادت به قريحة المطربين والمطربات، فارقته تحمل هذا التأوه وعادت إليه به ولكن شتان بين هذا وذاك، لم يتحرج من تقبيل يدها وهو يقول لها:

- كيف حالك حبيبتي؟

نظرت نحوه بدهشة وقالت بصوت مرتبك على إثر بقايا المخدر الذي يتلاعب بوعيها:

- ما هذا؟ لقد تركتك منذ ثوانٍ، كيف غزاك الشيب هكذا؟

ابتسم سعداوي وأطلق سراح دموعه قائلًا:

- خوفًا وألمًا من أجلك.

شددت قبضتها على يده قائلة:

- لا حرمني الله منك.

قال لها باهتمام:

- كيف تشعرين الآن؟

شردت ببصرها كأنما تستطلع داخلها وقالت:

- كأنما كان بي بركانٌ ثائرٌ وانطفأ.

كان بيده دبوسٌ فغرسه لمنتصفه بيدها التي ظلت ساكنة، ظلَّ محدقًا لكفها دهشة وقال لها وهو يتهدج فرحة:

- الحمد لله رب العالمين فقد نجحت العملية بامتياز.

*****

مفكِّرة شيماء:

((مرعام نال فيه هاني شهادته بحصوله على درجة الماجستيروتبقى له شهرين في نيابته، وهو لا يدري هل سيكون مدرسًا مساعدًا بالقسم أم سيتم الاستغناء عنه، لقد كان الثالث في دفعته بالقسم والمعتاد هو تعيين اثنين فقط والاستغناء عن البقية، ولكن في بعض السنوات كان العدد يصل لثلاث، وإذ بي أجده على عكس توقعي بدلًا من ارتباكه وتخوفه من القادم يأت إليَّ سعيدًا مستبشرًا، ظننته سيكيل لي من طيب كلامه المحب والذي اعتدت على التزود به في رحلتي معه، ولكن كانت المفاجأة حين قال لي:

- أنت وجه الخيركله، لقد فزت بما لم يحظ به الآخرون.

قلت له مازحة:

- بالطبع وهل يمكن للآخرين أن يجدوا من هي مثل شيماء.

قهقه قائلًا:

- بالطبع لا، ولكن شيماء وجه الخيرسترافقني إلى أرض الأحلام حيث المستقبل المشرق الباهر.

ارتبكت وقلت متسائلة:

- أي أرض هذه؟ وماذا حدث؟

قال لي والفرحة تعتري كلماته:

- لقد تمَّ قبولي لمنحة خاصة بجامعة بنسلفانيا لدراسة الدكتوراه، وغالبًا ستكون رحلة بلا عودة إلى أمريكا حلم الجميع.

ارتعدت رغمًا عني من أثر المفاجأة ونظرت نحوه بدهشة قائلة:

- ماذا؟ وكيف ومتى سعيت لهذه المنحة؟

رصد عدم مشاركتي مشاعره نحو هذه المنحة فقال بتردُّدٍ:

- منذ عام تقدمت بأوراقي لهم لعلمي شبه اليقيني بعدم تعييني مدرسًا مساعدًا بالقسم.

قلت له بصرامة:

- ألم يكن من الأفضل مشاركتي في ذلك منذ البداية؟

قال بالتردد نفسه:

- ظننتُ الأمر محسومًا ولا يحتمل النقاش.

- للأسف يا هاني الأمر في حاجة كبيرة للنقاش، أولًا لا تدري قد يكون نصيبك التعيين، ثانيًا التعيين مضمون بالنسبة لي؛ فأنا ثاني دفعتي، لماذا حكمت بمشاركتي معك لهذه الحياة بغض النظر عن مستقبلي وإرادتي نحوه؟

- الزوجة الصالحة تشارك زوجها كل حياته بحلوها ومرها.

- ولكني لست زوجتك الآن، ومن حقي اختيار مستقبلي وحياتي.

- ما هذا الكلام يا شيماء؟ ظننت الحياة معي وفي أمريكا ستغني عن أي أفكار أخرى، هذا بجوار سهولة نجاحك هناك في مستقبلك العملي بأفضل مما هنا بكثير!

- أسأت الظن يا هاني، لقد نسيت ارتباطي بأهلي وعدم قدرتي على مفارقتهم هذه المفارقة الأبدية، معذرة سأنادي أبي لمشاركتنا هذا الحديث.

وجاء أبي ليرد عليه وعلى أحلامه بكثير من الردود المنطقية العملية بأن الحياة لا تشمل النجاح المهني ولا المادي وفقط، ما قيمة نجاحك إن لم تشعر بطعم الحياة وافتقدت للطمأنينة والحب فيها، ولكن هاني كان مندفعًا يرى التراجع عمًا هو ذاهب إليه ضربًا من الجنون ولا يحتمل مجرد النقاش، ورغم طلب أبي منه التفكير ومناقشة الآخرين بمن فيهم أهله، إلا أن الفراق رفرف بجناحيه القويين فوق رؤوسنا.

وقد كان، وذلك عندما اتصل بي هاني من المطار في مفاجأة ثانية ليقول لي بأنه يحبني ولن يجد من تشابهني أبدَ حياته، وأني أنا الملومة لكسر هذه العلاقة التي كان يحلم بتمامها بزواج يتوج حياته بنجاح تام في شؤونه كافة)).

*****

رد عبد الكريم بسخط على رنين الهاتف المتواصل مخبرًا المتصل بأن العيادة مغلقة مرة أخرى لأجَلٍ غير محدد بسبب سفر الدكتور سعداوي، وبعد أن وضع السماعة منهيًا المكالمة بكلماته المحفوظة عن الاعتذار بسبب هذا الاضطراب المفاجئ، أشعل سيجارته ونفث دخانها بعصبية غير عابئ بالسحابة التي أظلت الغرفة، لقد عادت العيادة إلى سابق كسادها بعد خروج زوجة سعداوي من غيبوبتها، وذلك على نقيض كل التوقعات، لقد ذهبت كل آلامها بلا رجعة وانتهت المعاناة تمامًا، فلِمَ هذا التصرف العجيب من سعداوي؟

المفترض أن تزدهر حياته ويهتم بعمله سواء بالعيادة أو مستشفاه الخاص بعد أن أدى ما عليه واستقرت الأمور، ولكن ما حدث هو سعيه لنيل إجازة مطولة من الجامعة وكل أعماله، وذهب برفقة زوجته إلى وحدته بإحدى قرى الساحل الشمالي ليستقر بها استقرارًا تامًّا رغم كون شهر مارس ليس بموسم للبقاء هناك، ولكن لا يمكن لأحد أن يثنيه عما أراد.

وهناك وأمام زرقة المياة البديعة والممتدة للأفق، جلس سعداوي مطوقا بذراعه كتف زوجته ملتصقًا بها وكل منهما يهيم في لحظات السعادة المقتطعة من عراك الحياة، نظرت نحوه بود وقالت:

- هل يجب أن نصل للنهاية كي نتمسك بأجمل ما في حياتنا؟

كان يعلم مقصدها جيدًا ولكن رد قائلًا:

- عن أي نهاية تتحدثين؟

ابتسمت بمنتهى الوداعة قائلة:

- أعلم مصيري المحتوم، وأدرك بأن أنفاسي باتت معدودة، لو كانت الحياة طبيعية ما تركت كل شأنك من أجلي هكذا.

تنهد بقوة قائلًا:

- الله أعلم من فينا سيسبق الآخر.

ارتكنت برأسها إلى كتفه وقالت:

- سعيدة بأن يومي قبل يومك، فلن أتحمل فراقك ساعة.

- لا تفسدي اللحظة الجميلة بالحديث عن الفراق، طالما لم يأن أوانه بعد.

- أنا سعيدة جدًّا بقدري الجميل بك، لا أعتقد بأن هُنالكَ زوجة يضحي لها زوجها بمثل ما فعلت لأجلي.

ضمها إليه بقوة وزفر زفرة حارة وارتكن برأسه فوق رأسها ولزم الصمت.

*****

الدكتور مدحت الهواري الحاصل على الدكتوراه في أمراض الدم وأحد المعدودين على مستوى العالم في علاج اللوكيميا، وأحد أهم العاملين بمستشفى الصَّباح وهو الموكل بمتابعة علاج زوجة سعداوي، عدل نظارته بعد أن قرأ التقارير التي أمامه ونظر نحو سعداوي بدهشة قائلًا:

- هذه معجزةٌ طبيةٌ حقيقيةٌ.

تناول سعداوي منه التقارير وقرأ فحواها بسُرعةٍ ونظر نحوه باهتمام وقال متسائلًا:

- هل يوجد مجالٌ للخطأ في هذه التقارير؟

- لقد سحبت العينة ثلاث مرات وقمت باعادة الاختبارات لنفي هذا الشك، زوجتك حالة فريدة في كل شيء.

تراقصت بسمةٌ شاحبةٌ على وجه سعداوي ودمعت عينه رغمًا عنه، وهز رأسه وهو لا يجد ما ينطق به، وقد ألجمت الفرحة كل مشاعره وحواسه في حين استطرد مدحت قائلًا:

- لولا أنها زوجتك لطُفْتُ بها أرجاء العالم وعرضت حالتها المرضية بكل المؤتمرات، لم يحدث من قبل اختفاء كل آثار اللوكيميا بشكل نهائي بعد الوصول لهذه الدرجة من الشراسة، لا يوجد عندي أي تفسير علمي لما حدث.

بتهدج نطق سعداوي قائلًا:

- الحمد لله رب العالمين.

- آسف على مقولتي السابقة بأن مرضها في مراحله النهائية وأن أيامها صارت معدودة، لقد طرحت على أحد طلبة درجة الدكتوراه البحث في موضوع أثر الغيبوبة المستحثة على الشفاء من اللوكيميا.

أشار سعداوي بكفه أن كفى واعتصرت الأخرى التقارير وانطلق مسرعًا إلى زوجته التي تنتظره بمكتبه، فتح الباب دون أن يطرقه لتنتفض في جلستها ثم ابتسمت قائلة:

- اطمئن لم تعد تهاجمني أي آلام عقب جلسة العلاج الكيميائي، أنا حتى لا أشعر بوخزة سن المحقن.

جلس أمامها وبعد أن ألقى بالتقارير فوق مكتبه أمسك بكفها ونظر نحوها بودٍّ شديدٍ، ثم سالت عبراته لتخنق كلماته التي هم أن ينطقها، علا الأسى ملامحها وقالت بتوجس:

- هل خرجت التحاليل هذه المرة لتعلن أنها النهاية؟

قبَّل كفها وقال:

- نعم حبيبتي إنها النهاية، ولكن نهاية المرض، لقد شفيت بشكلٍ تامٍّ، حتى أنه لم يكن هُنالكَ داعٍ لجلسة العلاج الكيميائي التي تجرعتها منذ قليل.

هزَّت رأسها بقوة غير مصدقة وقالت:

- هل تمازحني أم تواسيني؟

أشار نحو التقارير الملقاة وقال:

- أقسم بالله هذا ما ورد بالتقارير وبشكل يقيني، انتهت معاناتنا تمامًا، وقد نجحتِ في الاختبار الذي وضعك الله به.

ظلت تنظر نحوه بجمودٍ وصمت برهة من الوقت، ثم خرت ساجدة وهي تكاد تقبِّل أرض الغرفة.

*****

مفكِّرة شيماء:

((أيُّ انكساروأي ألم هذا الذي تمكَّن مني عقب فسخ خطبتي بهاني، لم أتوقع كل هذا الحزن عقب خروجه من حياتي، طوال الجدال الذي صار بيننا عقب مفاجأته بالرغبة في السفر والهجرة كان يطوقني أملٌ خفيٌّ بأن هُنالكَ حلًّا سيظهر ويحدث توافقًا بين رغبات كل منا، محاولات خالد في إقناع أبي بترك المثاليات الفارغة والنظر للحقيقة المجرَّدة بأن الحياة خارج مصر الآن وفي بلد متقدم مثل أمريكا هي المستقبل كله والسعادة الحقيقية، كان من الممكن أن تمهد تلك المحاولات لحلٍّ وسط يقنع كلينا، لم أتوقَّع أن يصدمني هاني بمثل ما فعل، هذا أول فشل أجابهه في حياتي، مكثت ثلاثة أيام لا أستطيع الخروج من غرفتي إلا للضرورة القصوى ولكن داخل شقتنا، عيناي المتورمتان تفضحاني أمام أبي وأمي، والأخيرة تضمني إليها قائلة:

- ولا يهمك يا حبيبتي هو الخاسر، لن يجد من تماثلك، وستجدين من هو أفضل منه ألف مرة.

هل كل ذلك لأني أحببت هاني؟

الحق أقول لقد كُنتُ أشعر بالراحة معه، كانت الحياة مستقيمة وهادئة، وكل أموري مستقرة وطبيعية، ماذا أريد أكثر من هذا؟ .. زوج طيب هادئ ناجح والكل يشيد به، ولكن .. لم يكن لديَّ الشغف الحقيقي به، لم تكن عندي تلك اللهفة التي تدفعني للبحث عنه أو الاشتياق لسماع صوته، بل كان هُنالكَ صراعٌ خفيٌّ بين مشاعري الحقيقية، كُنتُ دومًا أقاوم وجود سعداوي في حياتي واهتمامي به، كُنتُ أضاعف من ردود أفعالي نحو هاني رغبة في صرع أي ظهور لسعداوي ولو بلمح البصر، أشعر الآن براحة من هذا الأمر، لم يعد بي حاجة للتظاهر ومقاومة أحاسيسي الحقيقية طوال الوقت، ولكن .. هو الفشل واعوجاج الطريق الذي كُنتَ تسير فيه وتظنه مستقيمًا ومستقرًا لك.

عدتُ للمستشفى في اليوم الرابع لأجد الكثير من التغيير قد حدث، عقب سفر هاني صرتُ أنا وسعداوي أقدم النواب، وبالطبع أصبح الأخير هو النائب السينيور،

وفوجئت به قام بالتوقيع عني في الأيام التي تغيبتها، وعدل جدول العمل بما يتناسب مع غيابي هذا، وعاد نظام العمل بالعيادات ليضمنا سويًّا كما السابق منذ عامين، وعاد سعداوي ليتربع على بؤرة اهتمامي، وعاد الرفض المتكرر لمن يتقدم طالبًا يدي والسبب معلوم هذه المرة لي بوضوح، تجربة هاني والذي كان به الكثير من المزايا أثبتت لي أن سعداوي هو الرجل المنتظر ولن أقبل بسواه، فكيف أقبل بمجهولين لا أدري أخيرًا فيهم أم شرًا، ولن يفلح أحدهم أن يكون في وضع مقارنة أبدًا مع سعداوي، وهنا قررت أن يكون هناك لين كبير مع الأخير ليظهر له أن الطريق ممهد وميسور فليتقدم)).

*****

تراصت الأطباق بنسقٍ خاصٍ يخطف الأبصار وقد حَوَتْ ما لذ وطاب من الأطعمة، وقف سعداوي يتطلع إليها ووجهه يحمل بسمةً خاصةً ونظر لزوجته قائلًا:

- ما هذا الفن والذوق العالي؟

نطقت بسعادة قائلة:

- هل أعجبك؟

- للغاية

- أتمنَّى أن ينال المذاق رضاك كذلك.

- هذا مما لا شك فيه، فما علمت عنك إلا المهارة الفائقة في كل أمور المطبخ وذلك منذ يوم زواجنا الأول.

شردت ببصرها قليلًا وقالت بأسى:

- أما أنت فقد حدث تغيير كبير في حياتك ولا أعلم سره حتى الآن.

فهم ما ترمي إليه فحاول الهروب من سير الحوار إلى هذه النُّقطة وقال:

- هيا لنبدأ، فلن يروق لي المذاق دونك.

جلست أمامه عاقدة كفيها أسفل ذقنها ناظرة إليه بعمق وهو يحاول ألا يلتقي بصريهما وقالت:

- ظننت ما حدث سيكون سببًا في منحك لبيتك اهتمامًا يفوق عملك، ولكن ما وقع هو النقيض وبدأت التغيب والمبيت خارجا غالب الأيام بسبب العمل، وهذا ما لم يحدث منذ زواجنا.

- لن أكون منانًا لأشرح لك كيف قصرت جدًّا في عملي مما يستوجب التعويض الآن.

ابتسمت وقالت بخفوت:

- وَلَو رُدوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ.

ومدت يدها لتتناول طعامها فلمح سعداوي الكثير من البثور بساعدها، فأشار نحوها وقال متسائلًا:

- ما هذا؟ ومتى حدثت؟

نظرت نحوها وقالت بمنتهى التلقائية:

- إنها على إثر تطاير الزيت المغلي عليها، لقد بقي معي من آثار المعركة السابقة نعمة عدم الإحساس بالألم.

ترك طعامه وأخذ يفحصها ببطء وتركيز وقال لها:

- ليس معنى عدم الإحساس بألمها ترك الاهتمام بها وبعلاجها، يجب تطهيرها وتغطيتها جيدًا وأخذ العلاج الذي يعجل بالتئامها.

ضحكت وقالت:

- ماذا إن علمت بما حدث منذ يومين؟

بملامح جامدة واهتمام كبير قال:

- ماذا حدث؟

مضغت طعامها وبعد ابتلاعه قالت:

- أثناء نزول السلم التوت قدمي تحتي بعنف، وسرت بعدها وكأن شيئًا لم يحدث، هل تتذكر عندما حدث مثلها في السابق واضطررت البقاء في الجبس لشهر؟

فقد سعداوي شهيته تمامًا وقال بضجر:

- يبدو أنها ليست بنعمة كما تقولين، أعطني قدمك لفحصها.

هز سعداوي رأسه برفض شديد وهو يفحص القدم المتورمة بشكل كبير ويعلوها الزرقة من الجانبين، وقال لها بعصبية:

- لو سمحت لو حدث أي شيء مشابه لا تنخدعي بعدم الألم وأخبريني مباشرة.

- ولكني أسير عليها بلا معوقات.

- الالتواء الشديد لقدمك جعل الأوتار تتمدد بأكثر من اللازم، ولكي تعود لطبيعتها ووظيفتها السليمة كان يجب التثبيت بالجبس لأسابيع، سابقًا كان الألم يجبرك على ذلك، والآن مع إهمالها قد تتمزق تلك الأوتار وتصبح قدمك بلا تحكم في حركتها وتحتاجين لعملية كبرى لإصلاحها، أتمنَّى أن يكون الجبس لشهور هو المطلوب الآن!

*****

مفكِّرة شيماء:

((أصبح الحديث مع سعداوي متبادلًا بشكر كبير ليس في مجال العمل فقط، وإنما عن الشأن العام، وأحيانًا عن بعض الأمور الخاصة مثل الحديث عن أبي، وكيف أن العمل والحركة والنشاط يجعلانه كشاب في الثلاثينات، في حين أن زملاءه يعجزون عن الحركة ودومًا في حاجة إلى المعاونة في كل شئونهم، وهو يحدثني عن أخته المتزوجة وبناتها اللاتي يملئن حياته بهجةً وفرحةً، وأنه لا يشعر بالسعادة إلا حينما يكون بينهن يُلقي عليهن النكات ويتلقى ضحكاتهن الجميلة التي تخلب لبه، لم أعلم شيئًا عن قدراته الفكاهية، فقلت باسمة:

- فلتسمعنا إحدى نكاتك هذه.

فابتسم وقال متحرجًا:

- سائق سيارة أجرة كان يعمل بكد لثلاثة أيام متواصلة ليتمكن من جمع مبلغ

القسط المستحق عليه، رائحة عرقه مع مخلفاته الأخرى عبقت السيارة من الداخل بمختلف الروائح السيئة، لم يعلِّق أحد الراكبين، مُكتَفين بفتح الشباك وتنسُّم الهواء السريع الوارد منه، حتى شاركه أحد الشباب، وبمجرد جلوسه بجوار السائق تشمَّم الرائحة بصوتٍ مسموعٍ، ثم سأل السائقَ قائلًا:

- هذه السيارة كم حصان؟

بمنتهى الفخر قال له السائق:

- خمسة وستون حصانًا.

فقال الشاب:

- أعتقد بأن أحدهم قد مات.

كدتُ أنفجر ضاحكة ولكن كتمت قهقهتي بالكاد واتسعت ابتسامتي فقط، وقررت أن أمنحه في الغد هدية خاصة مقابل هذه النكتة، فلدي قلمٌ ثمينٌ منقوشٌ عليه الحرف الأول من اسمي بالإنجليزية، وبالتالي قد يظن بأن المقصود به من ذلك الحرف الأول لاسم سعداوي، فهو دائم النسيان لقلمه، وعندما يبحث عن فقيده وقبل أن يطالب أحد العمال بالذهاب لشراء قلم جديد سوف أتلكك بذلك وأمنحه إيَّاه للكتابة به، وعند الانتهاء ومحاولة رده سأطالبه بالاحتفاظ به هديةً.

ولكن لم يمهلني القدر لفعل ذلك)).

*****

مدَّ سعداوي يده بالمشروب الدافئ إلى زوجته الجالسة بهدوء في شرفة مسكنهم متطلعةً بشرودٍ نحو الأفق وتمتد قدمها اليمنى للأمام وهي مغطاة بالضمادات البيض المميزة لعملية التثبيت بالجبس، لم تنتبه ليده فأصدر صفيرا خفيفا بفمه لتلتفت نحوه باسمة بوداعة، والتقطت منه الكوب لتمسكه بكلتا كفيها كما اعتادت، وقالت بامتنان:

- لا حرمني الله منك يا أحن زوج في الوجود.

جلس بجوارها وقال لها بود:

- بل أنت أطيب وأحن زوجة لا مثيل لها.

قالت بأسى:

- كُنتُ أتمنَّى أن أهبك الطفل الذي تقرعينك به.

هزَّرأسه بضيق قائلًا:

- كم تحدثنا في هذا من قبل، الحمد لله على كل شيء، لا تدرين فقد يأت عاقًّا ويقلب حياتنا الوادعة هذه جحيمًا.

- أشعربك وأعلم بأنك قد اكتملت حياتك الجميلة ولم ينقصك فيها إلا هذا.

- لقد خلقنا الله في كبد، ولا بدَّ وأن ينتقص من الحياة شيء.

- أنت فعلت وضحيت بالكثيرمن أجلي، ويجب أن أفعل المثل، هل زواجك بأخرى ينقصه موافقتي؟

ارتبك سعداوي بشدة وتلجلج في الكلام وقال:

- ما هذا الكلام؟! .. لو سمحت كفي عنه .. أخبريني هل قمت بالفحص العام لجسدك صباحا كما علمتك؟

ابتسمت بود وامتنان شديدين وقالت:

- نعم والحمد لله لا يوجد أي إصابات ولا كدمات ولا شيء منتقص.

شرد ببصره بعيدًا وقال بخفوت:

- الحمد لله.

*****

مفكِّرة شيماء:

((في هذه الليلة اتصلت إحدى الجارات بأمي وقالت لها أن هُنالكَ من يريد المجيء لرؤيتي تمهيدًا للزواج، ابتهجت أمي بذلك وكأن استمرار طرق الباب لأجل هذا الأمر علامة صحية يجب ألا تغيب حتى ينقضي الأمر، كُنتُ أعمل على حاسوبي في كتابة الجديد برسالتي المؤهلة لنيل درجة الماجستير قريبًا، وعندما طرقت بابي قالت لي بفرحة:

- فلتستعدي هناك عريس قادم.

قهقهت بقوة وقلت لها:

- هل كان مارًّا بالشارع وسمع بأن هنا عروسًا تنتظر؟

قالت بنفاذ صبر:

- لماضتك هذه هي التي ستضيعك.

قلت لها بمنتهى الاهتمام:

- عن أي ضياع تتحدثين يا أمي؟

قالت برجاء ممزوج بنبرةٍ حزينةٍ:

- يا بنيتي أتمنَّى الاطمئنان عليك قبل موتي.

نالت مني الجملة والصبغة التي قيلت بها، فنزعتُ نظارتي ووضعتها فوق لوحة الحاسوب واحتضنتها وقبلت رأسها وقلت لها بهدوء:

- اطمئني يا أمي ولا تقلقي عليَّ أبدًا، حفظك الله لي.

واضطررت لممارسة الطقوس المعتادة، وبعد الانتهاء منها كلها ما زال الرجل لم يأت بعد، فرغبت في استثمار الوقت باستكمال عملي المهم حتى ظهوره، وجاء بالفعل بعد قليل فاستقبله والدي ووالدتي وجلسوا معاً ليلقي كل منهم كلمات المجاملة الشهيرة في مثل هذه المواقف، في حين كُنتُ بالداخل أحاول بسُرعةٍ كتابة الجملة

obeikandl.com

الأخيرة في الصفحة المرادة بالرسالة، وكلي ترقب لطرق باب غرفتي طلبًا للظهور، ولكن تأخر هذا الطرق فأغراني باستكمال قطعة أخرى، والعجيب أن هذا الطرق لم يأت واختفت كل الأصوات التي كانت قد علت منذ قليل ولكن لم أنتبه لفحواها لتركيزي الشديد في عملي، وعندما انتهيت منه فضلت الخروج بنفسي لاستطلاع الأمر، لأجد أمي وأبي يجلسان بالصالة معًا جلستهما المعتادة، أبي يتابع الأخبار بالتلفاز وأمي إلى جواره محتقنة الوجه وتتمتم بكلمات مبهمة، فنظرت نحوهما بدهشة وقلتُ لهما:

- ماذا حدث؟

هَمَّ أبي أن يتحدث ولكن قالت أمي بعصبية:

- فلتدخلي لاستكمال أعمالك لنرى كيف ستنتهي بك؟

انتابني فضول شديد لمعرفة ما حدث فجلست بجوارها وأمسكت بكفها مقبلة إيَّاه وقلت لها:

- ماذا حدث يا سيدة الكل، والله لا أقدر ولا أطيق غضبك مني.

لوحت بكفها في عصبية أكبر وقالت:

- بآخر الزمن يأتي من يقول لنا (أين العروس نريد أن نراها بسُرعةٍ حتى نلحق بموعد رؤية العروس التالية) .

قهقهت وقلت لها:

- لا يحزنك الأمر يا غالية، الطباع تختلف من شخص لآخر هُنالكَ اللبق، ومن يلقي بالصخور من فمه هكذا.

- أنت أمنية للجميع ولسنا في معرض ننتظر مرور السائرين عليه للمقارنة بينه وبين بضاعة الآخرين.

قبلت كتفها وقلت لها:

- هل تعلمين هذا الصريح المباشر الذي يلقي الكلام دون تحسب لعواقبه، كُنتُ أود اللقاء به، فهي على نقيض ما ترين ميزة لا عيب.

انتفضت أمي وقالت:

- سأموت كمدًا بسببك، هيا قومي من أمامي الآن، فهُنالكَ الكثير من الشياطين تتراقص أمامي.

أخذت ألوح بيدي أمام وجهها وقلت مازحة:

- هيا انصرفي من هنا أيتها الشياطين.

واحتضنتها وملت برأسي فوق كتفها وقلت لها:

- أنا طوع أمركِ يا أمي المهم لا تغضبي ولا يمسك الضيق بسببي.

أحاطتني بذراعها وسالت دموعها وقالت:

- لم أرَ فرحة منكِ ولا من أخيك، أليس من حقي البهجة مثل بقية الناس بزواجكما.

التفت أبي ليقول لها:

- وهل هُنالكَ من مثلهما الآن، أستاذة بكلية الطب ومهندس بأكبر المصانع الألمانية، الكل يتمنَّى معشار ما فعلت لأولادك.

هنا انتزع أبي مني المقود ففضلت ترك الأمر له بأكمله، فقبلت خدها قبل أن ترد عليه وقلت لهما:

- ورائي الكثير، فلتتفقا على ما ترونه صالحًا وأنا لن أقول لا أبدًا.

وانهمكت بعدها في عملي حتى منتصف الليل، وعندما خرجت للصالة طلبا لكوب ماء بارد كانت الأضواء الخافتة والسكون يعمها بعد ذهاب الجميع للنوم، ولحقت بهما بعد ربع الساعة، وقبل الولوج إلى السبات دارت برأسي الكثير من الأفكار، هل أخطات في تعاملي مع سعداوي من البداية؟ .. هل كان يجب تقديم خطوتي الأخيرة هذه من البداية؟ .. فهو لم يرَ مني إلا الصدود من قبل، كان دومًا يظهر له نقيض ما أرغب، الآن سأفعل الصواب بلا تنازل ولا تهاون، فقط سيرى بشريات وعلامات الرغبة فيه والقبول به، وأعتقد بأن هدية القلم غدًا ستكون تمهيدًا مناسبًا لذلك،

وذهبت في عمق النوم المحمل بالكثير من الآمال للأيام التالية، سواء على المستوى الشخصي أو العلمي، ولكن انتفضت على هزةٍ قويةٍ من يد أبي وهو يقول بصوت لم أسمعه منه من قبل بهذه اللهجة المنكسرة والراجية:

- قومي بسُرعةٍ يا شيماء.

انتفضت ناهضة وقلت له بقلق:

- ماذا هناك يا أبي؟

كاد يبكي كطفل وقال لي:

- لست أدري فلتكشفي على أمك.

كان صوت آذان الفجر يلاحقني وأنا أحث الخُطَا مسرعة لغرفتها والكثير من الاحتمالات تطرق رأسي، كان جُل أملي أن تكون أزمة قلبية مشابهة للسابقة فيكون التصرف السريع بمثل ما حدث.

ولكن ..

كان انقباض قلبي الشديد حين رأيت نظرتها الشاخصة وسكونها التام، وأبي من خلفي يقول:

- حاولت إيقاظها لصلاة الفجر ولكنها لم ترد مطلقًا.

بحثت عن النبض وبقية آثار الحياة فلم أجد إلا الصدمة الكبرى التي كادت تقضي علي، لقد ذهبت إلى غير رجعة، وسقط عمود الخيمة للأبد، لقد ماتت تلك التي كانت يتنزل علينا فيضان الرحمات لأجلها)).

*****

- هل لديك أي علاج للغثيان؟

نطقت بها زوجة سعداوي ليلتفت إليها بفزع قائلًا:

- ماذا بكِ؟

ضحكت قائلة:

- لا تفزع هكذا إنه مجرد غثيان خفيف ورغبة للقيء.

قال باهتمام:

لقد اختفى أهم جهاز إنذار لديك، وأهوَن علامة مرضية قد تكون مؤشراً لخطر كبير، منذ متى وأنت تشعرين هكذا؟

- منذ الصَّباح.

- يجب فحصك جيدًا.

وكانت المفاجأة، فلأول مرة يلحظ شحوبها الكبير، وبقياس درجة الحرارة كانت مرتفعة ارتفاعًا طفيفًا، في الأحوال الاعتيادية كان من الممكن التشخيص المبدئي بأنه مجرد ميكروب أصاب المعدة، ولكن لأن نقمة ذهاب الألم تجعله بخبرته الطبية الكبيرة يضع كل الاحتمالات الكبرى أمام ناظريه واستبعادها أولًا، فكان اصطحابها بسُرعةٍ للمستشفى، خرجت نتائج التحاليل بأن هُنالكَ ارتفاعًا كبيرًا بعدد كرات الدم البيضاء، ولكن ليس الارتفاع ولا الشكل المميز لمرض اللوكيميا وهذا أخطر ما يتخوف منه، مما يدفع بزيادة الاحتمال لوجود ميكروب بالمعدة فعلًا، ولكن لم يطمئن لهذا، فقد يكون التجريب بإعطاء علاج لهذا الميكروب مضيعة لوقت حَرِج لا يجب تفويته، فطلب إجراء تحليل فيدال الذي يكشف مباشرة عن ميكروبات المعدة الشهيرة، وخرجت النتيجة سلبية مما يؤكد مخاوفه، الآن صار الأمر خطيرًا ويحتمل وجوهًا كبيرة لا يدري أين ولا كيف يبدأ بحثه عن سبب هذه الأعراض، لهذا سيقوم بعمل بحث شامل عن كل الأمراض الممكنة والتي تشترك في هذه الأعراض، استغرق الأمر ساعتين، حتى انتبه طبيب الأشعة إلى النُّقطة المؤثرة والتي يتضح أنها السبب، فقال باهتمام لسعداوي:

- الأمر كان أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش، الغالب أننا نبحث بالأشعة عن احتمال محدد لنفيه أو إثباته، أما السباحة وسط كل الاحتمالات تحتاج إلى التدقيق

الكبيروقد يضيع السبب منَّا إذا كان بمثل هذا الصغر، لولا توفيق الله وتمكني من رصده.

قال سعداوي بقلق:

- ماذا هناك؟

قال الرجل بيسر:

- إنه التهاب بالزائدة الدودية والذي يمكن تشخصيه بمنتهى السهولة عبر الألم الشديد والشهير المرافق له في الحالات الاعتيادية.

- دعك من ذلك الآن، ما مدى الالتهاب حتى نحدد العلاج المطلوب له.

بعد الوصول للتشخيص ظل الرجل يجول بالمجس الذي يطلق موجات صوتية فوق بطنها وهو يحاول بها رصد كل ما يتعلق بالمرض، ثم هتف بقلق قائلًا:

- لقد انفجرت الزائدة الدودية يجب نقلها بسُرعةٍ للجراحة.

كان الشحوب قد ازدادت درجته والكل يجري بها نحو غرفة العمليات وهي لا تشعر بأدني قلق في ظل الغياب التام للألم الذي يكاد يفتك بمن يشابهها في الأحوال الاعتيادية، وبغرفة العمليات صاح أحدهم :

- أين طبيب التخدير؟

قال سعداوي بقلق:

- لا يهمنا التخدير فلن تحتاج إليه، المهم سأحاول العمل على الجراحة وتابِعوا طبيب الجراحة العامة حتى يصل بسُرعةٍ.

للمرة الثانية سرح سعداوي بمبضعه في جسد زوجته والتي قالت له بوهن مبتسمة :

- هل هو اصطفاء من الله أن أكون المريضة الوحيدة التي يتم العمل عليها هكذا بلا تخدير لترى ماذا يفعل بها الجراحون؟

قال سعداوي وسط انهماكه في عمله وهو يجاهد ألا يظهر توتره:

- أنت دومًا مميزة ومتفردة في كل شيء.

ظل سعداوي يتجاذب معها أطراف الحديث وهو يرى آثار الانفجار يشمل أغلب منطقة البطن والتي يجب تنظيفها ببطء وعناية حتى لا تتسبب في التهاب للغشاء البريتوني، مما قد يؤدي للوفاة، كان عجيبًا له أن تفلت من الموت حين التعرض للمخاطر الكبرى، ثم تأتي تلك الوفاة لسبب تافه كهذا!

وبعد قليل وصل طبيب الجراحة العامة المتخصص في ذلك ليساعده في العمل الذي جاوز الساعتين، وعقب الكثير من المحاليل الوريدية والعلاج المكثف، تنهد سعداوي بإرهاق شديد وقد وصل أخيرًا لحالة الاستقرار التي يبغيها لها.

*****

مفكِّرة شيماء:

((لم يكن لديَّ علمٌ بأن الدنيا لها هذا الوجه القميء القبيح، وجهٌ ترى فيه كل شيء شاحبًا بلا لون، كل لفظ فارقه المعنى، كل حركة فاقدة للأمل، الحزن العميق القاتل لم أجربه من قبل بهذه الدرجة، كيف تنقلب الحياة فجأة هكذا بلا مقدمات؟

فقدت الرغبة في كل شيء، تبخرت أحلامي وآمالي، تمزقت كل مخططاتي، فقدت شهيتي ورغبتي حتى في الحياة، ولولا أبي ما كُنتُ أدري كيف ستسير حياتي.

ماتت أمي!!

ما زلت أنتظر نداءها، صوتها يسكن أذني ولا يفارقه، بسمتها تلوح لي في الأفق، أضم وسادتي ويُهيَّأ إليَّ بأنه حضنها، أقف بالمطبخ وأنا أشعر به مملكة فقدت أهم ما بها برحيل ملكتها وصارت مدينة أشباح، الكوب الذي وضعته بجواري حين عملي الأخير على الحاسوب ما زال بموضعه ويحمل بصمتها على جدرانه، لن أحركه من موضعه أبدًا، أنظر له وأنا أتعجب كيف كان هذا آخر ما حصلت عليه منها، تفاصيل المحادثة الأخيرة تتمثل أمامي كمشهد هيلوجرافي بكل حرف وحركة ولمسة، ترى هل أنا قاتلتها؟!

لم أكن أدري عمق جملتها التي قالت فيها بمنتهى المرارة:

- يا بنيتي أتمنَّى الاطمئنان عليك قبل موتي.

لقد ماتت دون تحقيق أمنيتها، أنا السبب في كل حزنها، الموقف الأخير والذي تسبب في توترها وغيظها وغضبها كان من أجلي، دومًا كانت تلوم عليَّ عدم طاعتي لها في هذا الأمر، لقد ماتت وهي عليَّ ناقمة وغير راضية، كيف يمكنني التكفير عن ذلك الآن؟

تراصت أمامي مشاهد كثيرة تكررت خالفتها فيها من دون حق، ذلك الطبيب الحاصل على الدكتوراه وعيادته ناجحة والكل يشهد له بالخلق الطيب والسيرة المحمودة، تعللت بأنه ليس تابعًا لهيئة تدريس الجامعة، وأن الفارق العمري بيننا عشر سنوات!

لم التفت لرجائها الباكي ورغبتها الكبيرة في الفرحة ..

تلك السيدة التي كانت تصلي معنا صلاة التراويح في رمضان وأقسمت أنها لن تتركني أبدًا، وعندما علمت بأني معيدة بالجامعة سجدت شكرا لله وقالت أخيرًا وجدت من سيرضى بها ابني، حيث كان الأخير مدرسًا مساعدًا بكلية الهندسة وكان أهم شرط عنده أن تكون عروسه على نفس درجته، وكان الرفض بسبب أنه يعمل في جامعة أسيوط وحتماً سيكون استقراره بها، تجاهلت كل مسوغات أمي في أن الحياة الناجحة لا ترتبط بمكان والسعي في الأرض يجلب الرزق، وطالما داخل مصر سيهون الأمر ومن السهل إيجاد حل له.

وغيرهم الكثير والكثير، والرفض كان بالبحث عن مبرر واهٍ يمكن تجاوزه والتغلب عليه!

لماذا حدث ذلك؟

نعم، إنه من أجل سعداوي، هو السبب الكبير في كل الأسى والحزن بحياتي، هو الدافع الذي أودى بأحلام أمي وجلب غضبها عليَّ، هو من قضى على السعادة التي سعت أمي إليها.

تسلل بغضه إلى قلبي رويدًا حتى أصبحت لا أطيق حتى نطق اسمه، تمنيت لو ذهبت إليه وصفعته صفعةً بها كل مشاعر الغضب التي تكتنفني الآن.

وبعد أن كانت أفكاري وخيالي يسبحان في ملكوته قبيل النوم، أصبحا الآن يتصارعان ويتباريان أيّما يمدني بحقد وغضب أكثر نحوه.

ولم يخفف عني ذلك إلا وصول أخي خالد من ألمانيا)).

*****

- لقد أصبت بمرض خطير.

نطقت بها زوجة سعداوي وهي تستلقي على فراشها بمنتهى الاسترخاء والأضواء خافتة كما تحبها دومًا، وسماعة الهاتف تلاصق خدها لتبتسم على إثر رد سعداوي الفزع حين قال:

- ماذا حدث هذه المرة.

- لهفتك الكبرى هذه في الرد، وحرصك الشديد على حمايتي جعلتني أخشى أن أعود طبيعية سليمة معافاة فينهشني الشوق إليها.

تنهد سعداوي وقال:

- أعتقد بعد تخطينا للعقد الرابع لسنا في حاجة لمعاملات المراهقين إثباتًا للحب.

- ومن قال لك أن المرأة لا تحتاج للكلمة الطيبة واللمسة الحنونة من المهد إلى اللحد؟

- وهل قصرت معك في ذلك؟

- لا يمكنني قول ذلك عن الأيام التي تقضيها معي، ولكن بت لا أتحمل غيابك لأيام عني.

- هكذا الحياة، أليس ذلك أفضل من بقائي الأبدي معك، ولكن بخُلق يجعلك تقولين ليته يذهب.

- لن أتغلب عليك في بلاغة الحديث، أنا فقط اشتقت لصوتك وأحببت سماعه قبيل نومي.

- تعلمين جيدًا أن اتصالك بي في أي وقت ذو أهمية وأولوية خاصة مهما كانت خطورة ما يشغلني.

- أراك غدًا على خيرٍ باذن الله.

*****

مفكِّرة شيماء:

((تغير كل شيء في حياتي بالفعل، بعد أسبوع خرجت من حالة الحزن الشديدة والاكتئاب البالغ التي ألمت بي عقب وفاة أمي، وكان الفضل في ذلك لجهد خالد المضاعف معي، أما أبي فقد شاخ فجأة وتهدلت كتفاه وتجعدت ملامحه بأكثر مما كانت وخفت صوته، وتباطأت حركته، وهاجمته حزمة من الأمراض كأنما كانت تقف خلف ستار تنتظر اللحظة المناسبة للنيل منه، لم أدرك مدى ارتباطه بأمي ومحبتها في قلبه إلا بعد وفاتها، لم أتوقع أن يحدث له هذا الانهيار السريع والذي وصل به لعدم القدرة على الذهاب حتى للصلاة بالمسجد، بل أصبحتْ صلاته جالسًا أغلب الأوقات، لم يذرف دمعة وإنما كانت تسكن ملامحه كل أمارات الحزن والانكسار التي يعجز أبرع الأدباء في التعبير عنها.

عندما عدت للمستشفى كان من الطبيعي أن أجد لوحةً كبيرةً لتعزيتي ومن دون سؤال كُنتُ أعلم من وضعها واهتم بها، جاءني الزملاء معزين وتأخر سعداوي كأنما يريد الانفراد بعزاء خاص في النهاية، ولم يدر بأنه قد جهّز المذبح لنفسه بهذا التأخر، ربَّما لو كان وسط الزملاء لكُنتُ رددت عليه بخفوت بأي جملة مجاملة، ولكن عندما تقدم وقد خلت غرفة العيادة إلا منا، قال لي بتأثر شديد:

- البقاء لله يا دكتورة شيماء، أعلم معنى فقد الأم، فقد تجرعته منذ خمس سنين.

لست أدري كيف استجمعت كل طاقتي، وبكل شحنات الغضب المختزنة بداخلي

والتي زكَّاها الكثير من التفكير السلبي تجاهه طوال أسبوع مضى وقلت له بمنتهى القسوة:

- فتلتحتفظ بكلماتك لنفسك فأنا في غنى عنها، ولو سمحت فلتقم بتعديل الجدول ولا تشترك معي في أي شيء لا عيادة ولا نوبة ليلية، وإلا سوف أقوم بالتقديم لإجازة طويلة حتى موعد مناقشة رسالتي.

وقف مبهوتًا، عيناه متسعتان، وفكه الأسفل متدلٍ ببلاهة وقال:

- هل أخطأت في شيء؟

انتزعتُ حقيبتي وخرجت مسرعة وأنا أقاوم الدموع على إثر انتفاض جسدي، لم أعد أطيق سماع صوته، انطلقت زاعمة الخروج من المستشفى والعودة للمنزل وليفعلوا ما يشاءون، ولكن استوقفتني إحدى الممرضات لتحتضنني وتعزيني فكانت مناسبة لإطلاق سراح دموعي، لتظن هي وغيرها بأنها على إثر العزاء وفقط، أخذت تهدئ من روعي وبعد أن استقرت الأمور وجفت المقل، استأذنتها في السيرولكنها قالت لي بتردُّدٍ وخجل مصطنع:

- معذرة يا دكتورة، هل من الممكن أن تكتبين لي دواءً جيدًا للصداع النصفي.

بفارغ الصبر فتحت حقيبتي لأخرج قلما، فإذا به ذلك الحامل للحرف الأول من اسمي بالإنجليزية، بمنتهى العصبية خططت به اسم الدواء على ورقة صغيره وانطلقت وأنا أعتصره بقوة في كفي، وألقيت به في أول سلة مهملات قابلتني.

*****

زاد تغيبي عن المستشفى، والأيام القليلة التي كُنتُ أذهب فيها لست أدري من فينا كان متجنبًا للآخر، المهم لم نلتق قط لمدة أسابيع ثلاثة، وأخيرًا تحدد موعد مناقشتي بعد أيام قلائل، كُنتُ أتعجلها وأبذل مجهودًا مضاعفًا في رسالتي من أجل أمرين، الأول الانغماس والانشغال بشيء ينسيني الكون من حولي، وإن كانت كل كلمة أكتبها أنتظر طرقة الباب الهادئة إياها لتدخل أمي حاملة كوبًا من مشروبي الدافئ لتقول لي:

- لست أدري متى ستنتهي هذه المذاكرة التي تكاد تذهب ببصرك.

فأرد عليها ضاحكة:

- بالله عليك لو تزوجت هل سيفعل لي زوجي هذا.

فترد قائلة بحسرة:

- الزواج هو أفضل شهادة ورسالة لك في حياتك.

وبصعوبة أنتزع نفسي من ذكرياتي وأجفف سيل الدموع الصامتة التي خرجت لا شعوريًّا مني.

والسبب الثاني والمهم جدًّا اللحاق بأخي خالد قبل سفره ليحضر مناقشة هذه الرسالة، سيكون دعمًا كبيرًا أنا في حاجة حقيقية إليه.

تبقت عشرة أيام على العرس المشهود لكل طبيب، وقد انتهيت من كل شيء، كأن وفاة أمي كانت شفيعًا لي عند المشرفين على رسالتي فتم الانتهاء بسُرعةٍ من بقيتها وتمت مراجعتها وطباعتها ومخاطبة اللجنة القادمة للمناقشة، واستخراج كل الأوراق الرسمية نحو ذلك، وشمل ذلك تجهيز القاعة والإعلانات المطلوبة ودعوة الكثير من الزملاء والأساتذة بشكلٍ خاصٍّ، وتمَّ كل ذلك في وقتٍ قياسيٍّ لم يحدث من قبل، وكانت المفاجأة في حضور قناة أمريكية لتصوير هذه المناقشة لست أدري كيف وصلهم الخبر، ولكن كان بالنسبة لهم حدثًا خاصًّا أن تتخصص طبيبة عربية في مجال جراحة المخ والأعصاب بل وتنجح فيه وتكون أستاذة جامعية، فكان ذلك سبقًا إعلاميًا لهم.

ولم يظهر سعداوي!

الانشغال في الرسالة وما يخصها بالفعل نزع مني الكثير من المشاعر السلبية المدمرة التي كانت قد التهمتني من قبل، وخبر تلك القناة الأمريكية كان مبهجا بالنسبة لي ليرسم أول بسمة على وجهي بعد وفاة أمي، في هذا اليوم وددت لو التقيت بسعداوي لأعتذر إليه عن جفائي، ولكن مع الاستمرار فيما ذهبت إليه، لقد كان بالفعل هو

السبب الأول والكبير في أن تموت أمي منتقصة لفرحة ظلت تبغيها وتسعى إليها أمدًا من الدهر، والحق أقول محبتي لأمي أغلى وأثمن عندي منه ومن أي شيء آخر؛ لذا ربَّما هو جلد للذات وعقاب شخصي لنفسي بالحرمان مما كُنتُ أصبو إليه مقابل ما فعلت بها.

اتصل بي خالد في هذا اليوم ليسألني أين أنا، فقلت له بأني على وشك العودة للمنزل بعد ساعة، فقال بقلقٍ شديدٍ:

- فلتسرعي بالعودة.

- ماذا حدث؟!

- لا شيء أريدك بسُرعةٍ.

نهشني القلق فتركت كل ما بيدي وعدت مسرعة والأفكار والظنون تتناوب عليّ، وقد كان أحد توقعاتي صحيحًا، فقد كان أبي مستلق على سريره يهذي بكلمات غير مفهومة، وبين الفينة والأخرى اسمع اسم أمي مناديا عليها، ظننت أنه هذيان بسبب ارتفاع درجة الحرارة، ولكنها كانت طبيعية، كان ضغطه ونسبة السكر طبيعيين أيضا، لم أدرِ ماذا أفعل فاتصلت بإحدى الزميلات في قسم الباطنة فلم تتأخر وبعد فحصه قالت بأنه طبيعي جدًّا، قد يكون انهيارًا عصبيًّا ويفضل إعطاؤه مهدئًا، وبالفعل بعد تناوله ذهب في سبات عميق، ظللت بجواره ممسكةً بكفه وكأني بهذا أمنعه من الذهاب عني، قلت له بخفوت:

- أرجوك يا أبي لا تفعلها، لن أتحمل ذلك، لم أستفق بعد من وفاة أمي.

لست أدري كيف سمع جملتي ولا طريقة مخالفته للقواعد الطبية حينما رد عليَّ بوهن رغم المهدئ القوي والذي يفترض فيه أن يحفظه نائمًا ثمان ساعات على الأقل؛ قال بصوته المتقطع:

- لكل أجل كتاب يا بنيتي.

قبلت جبهته وتساقطت دموعي على وجهه فمسحتها وهو يستطرد:

- لقد أدينا رسالتنا نحوكما وأثق بك وبأخيك، حفظكما الله.

قلت بصوت متهدج من أثر البكاء:

- فلتكف عن الكلام وتسترح قليلًا يا أبي.

ابتسم بضعف شديد وقال:

- لقد حان وقت الراحة بالفعل.

وبعد قليل لم أدر كيف انطلقت مني تلك الصرخة الملتاعة التي هزت أرجاء البيت وربما البناية بأكملها، فقد سقط عني جناحيَّ في خلال شهر، وانتهت حياتي وذهب مني كل شيء فيها)).

*****

أخذ سعداوي يتمتم بآيات القرآن التي يترنم بها أحد مشاهير القراء بإذاعة القرآن الكريم بمسجل سيارته، وزوجته بجواره تسترخي في جلستها تمامًا مغلقة عينيها، تسبح مع معاني الآيات التي تبث فيها راحةً واطمئنانًا، فبعد يومين جاءا كاستراحة سريعة من مشاغل زوجها، وبعد أن قضت معه على شاطئ البحر ساعات ثمينة لا يشغلهما إلا بعضهما البعض، حانت العودة من الساحل الشمالي إلى القاهرة، هي بالفعل تنعم بالقرب منه، ولكن طبيعتها الأنثوية الفطرية تطلب المزيد، تتمنَّى لو يترك كل الدنيا ليتفرغ لها بمثل ما فعل من قبل، وهذا ما يخالف الواقع، فتأقلمت على وضعها الجديد بأن يمنحها المتاح من وقته الذي لا تدري في أي شيء يستثمره وما العائد فيما بعد.

سلك الطريق المعتاد من بعد مدينة العلمين والمسمى بطريق وادي النطرون إلى القاهرة، ولكن بعد قليل ظهرت بعض الإصلاحات بالطريق، فاضطر أن يذهب مع نهر السيارات المتدفق أمامه عبر إحدى التفرعات الصناعية، ولكن وجد الطريق قد ذهب به إلى منطقة رملية لن تفلح سيارته في عبورها وقد جرب ذلك من قبل،

فآثر أن يسلك طريقًا جانبيًا غير ممهد ولكن يتصف بالصلابة، وبدأ بتشغيل نظام تحديد المواقع الإلكتروني بجواله حتى لا يفقد الطريق ولا يتوه عنه، كانت السيارة تتأرجح بقوة أثناء سيرها البطيء، وبعد خمس كيلومترات اقتحمت أنفه رائحة الوقود النفاذة التي جاءت إليه عبر فتحات مكيف السيارة التي أجاد إغلاق نوافذها تجنبًا للغبار بالخارج، توقف تمامًا وأخذ يتشمم الهواء بقوة وتأكد بالفعل أنها رائحة الوقود وأكَّدت زوجته ذلك معه، أوقف محرك سيارته وهبط منها مسرعًا ليفتح غِطاءها وبدأ في الفحص باحثًا عن مصدر تسرب هذا الوقود، ووجده بسُرعةٍ؛ فعند مقدمة المصفاة البلاستيكية المسئولة عن تنقية الوقود من الشوائب، كان هناك تحطمٌ على إثر اصطدام الحصى الكبير والصلب بها، والوقود يتسرب منها ببطء أثناء توقفه، مما يعني بأنه كان يندفع بأكثر من ذلك أثناء القيادة، أسقط في يده ماذا يفعل وهو وحيد بمنطقة منعزلة وخالية من البشر؟

لا بدَّ من تركيب مصفاة جديدة ولكن كيف الحصول عليها، حتى لو اتصل بمن يجلبها له كيف سيصف له موضعه ومتى سيصل إليه؟

نظر مرة أخرى للمصفاة والتصميم لتركيبها من الأمام والخلف عسى أن يهتدي لحل مؤقت لمشكلته الصغرى هذه، كانت المصفاة ذات مبسمين رفيعين من الجانبين ينبثق من كليهما خرطوم يتناسب مع حجمها؛ أحدهما قادم من مخزن الوقود والآخر ذاهب إلى حيث تغذية المحرك به، اهتدى لفكرة مؤقتة تخرجه من أزمته بأقل الأضرار، فعاد إلى داخل السيارة وأخرج حقيبته الشهيرة التي لا تغادره أينما حل أو ارتحل، ومن ثناياها ذهب بقلم قطره الخارجي يتناسب مع قطر ذلك الخرطوم الناقل للوقود، حطم القلم وصنع من هيكله ما يشبه الأنبوب الموصل بين طرفي الخرطوم بعد نزع المصفاة تمامًا، وبهذا منع التسرب وليكن الوقود بشوائبه أخف ضررا من تسربه ومخاطره التي لا تنتهي.

أدار محرك السيارة وطلب من زوجته أن تضغط على دواسة الوقود لتزيد من اندفاعه واطمأنَّ بأن التسرب قد انتهى تمامًا.

فعاد إليها لينطلق بسيارته إلى حيث يمكنه إتمام الإصلاح التام، وابتسم قائلًا:

- سبحان الله منحنا الله الحواس لنكتشف بها المخاطر قبل تغولها، فلولا اشتمامنا لرائحة الوقود لربما حدثت شرارة أوقدت النيران والله أعلم ما العواقب بعدها.

ابتسمت زوجته وسرحت قليلًا ببصرها متفكرة فيما قال وهزت رأسها قائلة:

- الحمد لله على كل حال، أنت الوحيد الذي يزيل عني مرارة الحياة.

- حفظك الله لي.

اعتدلت في جلستها وحاولت ازدراد ريقها وقالت:

- بمناسبة المرارة، أشعر بمرارة شبه دائمة في فمي منذ يومين، ولكن الآن يراودني شعور طفيف بالاختناق؛ ربَّما من رائحة الوقود أو الغبار.

نظر نحوها بقلق وقال:

- ماذا؟! .. منذ يومين!! ولماذا لم تخبريني بذلك؟

ابتسمت بوداعتها اللطيفة وقالت:

- رغبت في عدم الحرمان منك وقتل إجازتنا الجميلة، وذلك لعلمي بأنك ستعود مسرعًا إلى القاهرة لمعرفة السبب.

قال متوجسًا:

- المشكلة أن أهون علامة لديك قد تكون مؤشراً لخطر بالغ، أستحلفك بالله ألَّا تكرريها.

هزت رأسها بامتنان ولزمت الصمت محاولة الاستنشاق بعمق، في حين زاد هو من سرعة السيارة غير مبالٍ بوعورة الطريق ومراعاة أن سيارة تعمل بلا مصفاة للوقود.

*****

مفكِّرة شيماء:

((يبدو أن الحزن عندما طرق بابنا طاب له البقاء والاستمرار معنا، مرت أيامي الأولى بعد فقد أبي وقد فقدت الرغبة حتى في الحياة، ومساء اليوم السابع فوجئت بزيارة مدهشة من عميد الكلية ورئيس القسم، ظننت أنهما جاءا من أجل التعزية ولكن كان هدفهما مختلفًا تمامًا، كانت جلستهما طبيعية للعزاء مع أخي خالد، وبعد برهة من الصمت طلبا منه مقابلتي بعيدًا عن الناس، فصحبهما خالد إلى غرفة جانبية واستدعاني إليها، جلس الجميع، وبعد كلمات العزاء المحفوظة تنحنح العميد قائلًا:

- بالطبع نعلم مدى حزنك وألمك على إثر المصاب الأليم، ولكن .. أنت طبيبة، ولست طبيبة اعتيادية وإنما اصطفاك الله لتكوني من المميزين من أبناء المهنة؛ ولذا يجب تحكيم الجانب العقلي أكثر ليس في عملنا فقط وإنما في بقية شئون حياتنا.

هززتُ رأسي كأني أوافقه وأجاهد بقوة لرسم انفراجة بفمي قد يظنونها بسمة مني، فنطق رئيس القسم مباشرة وقال:

- أذكر نظرتكِ الصارمة وصوتك القوي عندما قلت لي بتحدٍّ أنك دخلت مجال جراحة المخ والأعصاب عن حبٍّ ورغبة في النجاح فيه، وأشهد لك نجاحك في ذلك.

انتابني فضول لمعرفة لِمَ كل هذه المقدمات، فاستمررت بهز رأسي دلالة الموافقة أو الحبور لقولهما، فتسلَّم العميد دفة الحديث قائلًا:

- أعلم أن القادم قد يكون غيرَ مناسبٍ أو لائقٍ، ولكن كما قلتُ لك تغليب العقل مطلوب منَّا بقوة لنتمكن من تأدية رسالتنا على وجهها المطلوب.

صمت هنيهة وعندما طالع عينيَّ المتسعتين المنتهتين ترقباً لقوله استطرد قائلًا:

- الكلية بأكلمها يتوقف الكثير من منافعها الكبرى على حضورك لمناقشة رسالة الماجستير الخاصة بك في موعدها.

لو كان حضورهما بزعم خوفهما على صالحي ومستقبلي وما شابه لكُنتُ شعرت

بالسعادة لمدى اهتمامهما الكبير، ولكن الحق أقول لم أكن لأذهب: فصالحي ومستقبلي أصبحا خاويين لا معنى لهما، فقدت الدافع للاستمرار في أي شيء، بتُّ أترقب أن تنتهي أنفاسي المعدودة والباقية لي في هذه الحياة، أتعجل الذهاب إلى حيث أبي وأمي في الحيوان الحقيقي هناك، فأي صالح بهذه الدنيا الحقيرة سيهمني بعد ذلك؟

ولكن .. كلمة منافع الكلية الكبرى هذه نجحت في إثارة فضولي، فنطقت لأول مرة بصوت شاحب خرج كفحيح قائلة:

- كيف هذا؟!

نطق رئيس القسم بحماس قائلًا:

- أنا من راسل الدورية الطبية الأمريكية الشهيرة لنقل خبر كونك أول طبيبة تتخصص لدينا في جراحة المخ والأعصاب، وتحدثت عن نجاحك وتميزك في ذلك، راق لهم الأمر حيث إن سمعة المرأة العربية مغايرة عندهم، وكما توقعت سيصير هناك باب للتعاون والمصالح المشتركة بيننا، والتي ستعود بالنفع ليس لقسمنا فقط وإنما لكلية الطب بجميع أقسامها، وهم من راسلوا إحدى القنوات الأمريكية لعمل تقرير عنك؛ وطاب لهم أن يكون هذا التقرير يوم المناقشة، كل ذلك سينهار لو تمَّ إلغاء المناقشة.

احترتُ جدًّا في الرد عليهما بعد مفاجأتي بكل ما كان يدور في الخفاء، أنا بالفعل لم يَعُد يهمني كل ذلك، ولكن أن يأتيا خصيصًا في سابقة أعتقد لم تحدث من قبل؛ فهذا تأكيد على مدى أهمية الأمر، ولكن لو ذهبت بالفعل سأخذلهما، لن أكون تلك المحاورة الجيدة التي ترد على الأسئلة التي تنتهك وتستهين بكل معلومة خطت بالرسالة، وكأن كثرة اكتشاف الأخطاء بالرسالة تأكيد لمدى تميز المناقش، وفي الوقت نفسه تجعل الباحث لا يشعر بالرضا ويسعى لبذل المزيد، في أحوالي الاعتيادية ربَّما بكيت لو زاد الأمر عن حده، فما بالك وقد زالت كل الموانع والحواجز وانهارت كل مقاومتي حتى بتُ أبكي عندما أنفرد وحيدة، وبالتالي سيكون هدفُ حضورِ الفريقِ

الأمريكيّ معكوسًا، سيرَون أنثى محطمة فاشلة سيئة، فكيف سيعود ذلك بالنفع عليهم؟

لهذا قررت الرفض وليحدث ما يحدث بالنسبة لي، فقد تيقَّنت الآن من انتفاء النفع العام الذي أتوا لأجله، ولكن ..

كان خالد صامتًا منذ البداية، يتابع سير الحوار وفقط، ولخبرتِهِ بجنوني، ولعلمِهِ بما سينطق به لساني على إثر ما ظهر من علامات ارتسمت على وجهي، استبقني قائلًا:

- أعلم بانكسارك يا شيماء وهو نفس مصابي بكل ،آثاره وقد يكون بأكثر منك، ولكن سأسألك سؤالًا واحدًا تفكَّري فيه جيدًا وامنحي ردَّكِ بعده إلى الأطباء الكرام هؤلاء.

نظرتُ إليه بترقب وكذلك من معي، فقال ببطءٍ وتركيزٍ:

- ما الذي سيُرضي أمَّكِ وأباكِ أكثر في قبريهما بالنسبة ليوم المناقشة؟

نجح خالد بامتياز في طَرق النُّقطة الحساسة، والتي بها المؤثر الكبير في اتخاذ قراري، شردت ببصري متخيلة انتظار أمي لهذا اليوم وفرحة أبي وفخره بي وأنا أتحدث على المنصة، ترى هل سيشعران بذلك حقًّا؟ .. هُنالكَ حديث نبوي معناه ينطق بذلك، وأن أعمالنا تعرض على ذوينا من الأموات وقد يتباهون بها أمام بعضهم البعض، لست أدري مدى صحته ولكن الخاطر نفسه طاب لي؛ لذا .. سأفعلها لأجلهما وفقط، فاستدرت نحو الرجلين وبصوت خرج قويًّا على عكس المتوقع وبحسم قلت:

- سأحضر بإذن الله في موعدي.

عاد العميد بظهره للخلف متنهِّدًا وابتسم رئيس القسم برضا وقال:

- لا تقلقي سنراعي كل ظروفك وسوف يسير الأمر بلا عَنَت معك.

هَمَّ العميد أن يقوم عازمًا الانصراف وقد تمت المهمة بنجاح ولكن استوقفه أخي خالد قائلًا:

- ما دام الدكتور قال أنه سيراعي ظروف شيماء، هل من الممكن طلب خاص جدًّا.

نظرا نحوه بترقب فألقى بالمفاجأة التي لم تخطر لي على بال حين قال:

- أرجو الموافقة على منحها إجازة طويلة قد تصل لسنين عدة؛ حيث إنها ستسافر معي إلى ألمانيا بعد أسبوعين، وكما تعلمان الظروف جيدًا، لم يعد من الصَّالح بقاؤها هنا وحدها.

نظرتُ نحوه بقوة وهممتُ بأن أنطق، ولكن نظر نحوي معاتبًا نظرته التي أفهمها جيدًا، والتي تعني «ليس الآن» فآثرت الصمت في حين نطق العميد قائلًا:

- أعدك بأن نبحث في اللوائح عما يسمح لها بتلك الإجازة ولن نتردد في منحها لها.

ابتسم خالد ممتنًّا، وبعد كلمات المجاملة انصرفا، ليبدأ النقاش مع خالد حول ما طَرَحَهُ منذ قليل)).

*****

عندما وصل سعداوي بزوجته إلى المستشفى كان شعور الاختناق قد زاد عندها وانتابها رعشةٌ قويةٌ، مما يعني ارتفاع درجة حرارتها، وكالعادة افترض جميع الاحتمالات وأخطرها والبحث فيها، كان الظنُّ بأنها تعاني من أحد أمراض الرئة، فتم وَضْعُها على جهاز استنشاق الأكسجين، وتعاطت الكثير من الأدوية الخافضة للحرارة والمضادات الحيوية واسعة المدى، مع عمل الأشعات المختصة بكشف أمراض الرئة، ولكن بدأ صوتُها يخفت وهي تشير نحو رقبتها دلالة صعوبة التنفُّس، وخرجت الأشعة لتؤشر بسلامة الرئة من جميع الأمراض، قال سعداوي لرفاقه من الأطباء:

- إشارتها نحو رقبتها قد تكون لتحديد موضع الإصابة، ولكن يجب وضع أنبوب القصبة الهوائية التنفسي عبر الأنف حتى لا تفقد أنفاسها.

دون تخدير ودون أي رد فعل منها تمَّ وضع الأنبوب بسُرعةٍ لتسترد أنفاسها، ولتنطق لأول مرة قائلة:

- الحمد لله لقد عاد لي تنفسي بشكل طبيعي ولكن أشعر بثقل غير طبيعي أسفل

لساني.

كان الأطباء يتعاملون معها كلغز يجب فك شفراته بسُرعةٍ وأي معلومة ستساعدهم في الوصول إلى التشخيص الصعب الذي ارتبكت خيوطه بسبب غياب الألم لديها.

فحص سعداوي أسفل لسانها ليجده ملتهبًا بقوة ومتورمًا بشكل يدفع بقاعدة اللسان لأعلى، ظن بأنها قد أصيبت بورم سرطاني في هذا الموضع، ولأن هذه المنطقة يجول فيها طبيب الأسنان بأفضل من طبيب الجراحة فطلب سعداوي استدعاء أحدهم بسُرعةٍ، وانطلق في عمل الأشعات والتحاليل التي خرجت لتؤكد أنها خالية من الأورام السرطانية ولكن هناك التهابًا ارتشاحيًّا أسفل اللسان يكاد يخنقُ القصبةً الهوائيةً، وهو ما تسبب في صعوبة تنفسها من قبل لولا الأنبوب الذي تمَّ تركيبه، وأخيرًا وصل طبيب الأسنان وبعد استعراض خصوصية الحالة التي أمامه قام بفحص طبي شامل ودقيق لمنطقة الفم والأسنان ليكشف لهم المفاجأة.

جلس وهو يهز رأسه بأسى قائلًا:

أمر تافه كاد يودي بحياتها بسبب غياب الشعور بالألم، لقد أصيبت بخراج أسفل أحد الضروس المكسور طرفها، في الأحوال الاعتيادية يسبب هذا الخراج ألمًا يضج مضطجع صاحبه ويدفعه للكشف والعلاج رغمًا عنه، ولكن بسبب غيابه لم تشعر به فتركته وتسبب في مرض نادر الحدوث يسمى عندنا (ذبحة لودفيج)، وهو التهاب يصيب النسيج تحت اللسان و الطبقة السطحية والعميقة للعنق وتسبب في الاختناق، ويصل عندنا في بعض الحالات إلى الشق الحنجري كي ننقذ حياة المصاب به، ولولا أنها بين أطباء تصرفوا ببراعة لقمنا بشق رقبتها بمشرط لفتح مسار الهواء قبل موتها مختنقة.

قال سعداوي باهتمام:

- هل هو ما تسبب في شعور المرارة بفمها منذ يومين؟ .. أم نبحث عن متسبب آخر؟ .. فمعها لا يمكن إهمال أي أثر ولو طفيف.

- نعم هو بالفعل.

قام طبيب الأسنان بوصف العلاج اللازم والذي بدأ به على الفور وبشكل مكثف، وبينما يمسح سعداوي على رأسها ويشرح لها خطورة ما حدث وكيف أنها لو أخبرته من البداية بشعور المرارة ما وصلت إلى هذا، لتبتسم قائلة بهدوئها الدائم:

- يبدو أن الحياة لن تستقيم إلا بوجود الألم فيها.

*****

مفكِّرة شيماء:

((بداية من باب المستشفى حتى مدخل قاعة المناقشة مسافة تقترب من ١٠٠ متر، ولكنها كانت بالنسبة لي رحلة طويلة تكاد تتعدى ١٠٠ كيلو مترٍ سيرًا على الأقدام، مع كل خطوة كانت تقتحمني الكثير من الذكريات، هنا استوقفني سعداوي ليسألني عن أشعة الرنين الخاصة بمريض الانزلاق الغضروفي، وهنا وقفت أحلم بنظرة الرضا والفخر على وجه أبي عندما يتباهى بابنته جراحة المخ والأعصاب الناجحة، وهنا تذكرت أمي وهي تلومني لرفضي معيدًا بإحدى الكليات، وبين كل خطوة وأخرى يكون توقُّفًا، إما للرد على تعزية أحدهم أو محاولة التفلُّت من حضن إحدى الممرضات التي تواسيني بمبالغة تكاد تسقط نظارتي السوداء الكبيرة التي تحجب أغلب انفعالاتي بحجمها هذا، وأخيرًا عند القاعة كان يقف بعض النواب الجدد مبتسمين فرحين يمنون أنفسهم بيوم لهم يماثل ما يرون الآن، دخل أحدهم مسرعًا ليبشر الجالسين بوصولي في حين ارتبك الآخر وهو لا يدري هل يهنئني أم يواسيني، فخرجت منه جملتان متقاتلتان نقيض بعضهما البعض، فهززت رأسي دون رد، ووقفت على باب القاعة أستجمع أنفاسي السليبة وأقاوم دمعة كبيرة بدأت في التجمع، هل سأجد

أبي في الصف الأول وفي الكرسي الذي أعددته له منذ أسبوع، هل سأسمع زغرودة أمي في نهاية الحفل، هل سأستكين في حضنيهما فرحة سعيدة ببهجتهما الكبيرة التي سيحصلان عليها بسببي؟

خرج عميد الكلية بنفسه لينتزعني من هواجسي وخواطري القاتلة، فسلم خالد عليه؛ والذي لم أشعر به بجواري طوال هذه الرحلة المليئة بالأشجان، وأشار للداخل قائلًا:

- تفضلي يا دكتورة.

أخذت شهيقًا كبيرًا كأنما سأخوض أمواج البحر، وبقدم مرتعشة خطوت للداخل لأجد الكثير من الأضواء تلمع في وجهي بعضها لكاميرات التصوير الفوتوغرافي والأخرى الخاصة بالقناة الأمريكية، لو حدث هذا من قبل لكدتُ أن أحلق في سماء القاعة من الفرحة، ولكن كانت بالنسبة لي أشبه بأضواء كاشفة في غرفة جراحة تلمع أمام مريض مُسجى مخدر بالكامل ولا يشعر بها، الكثير من الأيدي امتدت مسلمة ومرحبة، لم أشغل نفسي بمحاولة معرفة هوية أصحابها، وأخيرًا وقفت تلك الصحفية الأمريكية لتسألني عدة أسئلة سريعة عن شعوري في هذه اللحظة وكيف كانت رحلتي بقسم جراحة المخ والأعصاب، وما هي المعوقات التي واجهتني فيها، ومن صاحب الفضل الكبير فيما وصلت إليه، الكثير من الأسئلة المتتالية والتي لم يكن لي بها طاقة، فقلت لها بهدوء شديد وصوت كسيح:

- هل من الممكن تأجيل الإجابات لما بعد المناقشة؟

وكان الترحيب من الجميع بذلك، وبأسرع من انتظام الصفوف للصلاة عقب الإقامة بالمساجد؛ انتظم الجميع بسُرعةٍ كل بموضعه، السادة المناقشون على منصتهم الكبيرة المنسقة بعناية، وذلك بالطبع في ظل عناية كبار مسئولي المستشفى بالحدث، والمستمعون على كراسيهم الأنيقة ورجال الصحافة والعاملين بالقناة

الأمريكية خلف كاميراتهم، وتقدمت نحو المنصة التي راودت أحلامي مرارًا، وكم رسمت لخطواتي نحوها ألف سيناريو، ولكن كان القدر صاحب سيناريو مختلف تمامًا، وقفت خلفها وأنا أشعر بها كقفص اتهام لمجرم ينتظر حكم الإعدام، كانت أمامي نسخة من رسالة الماجستير، فنزعت نظارتي السوداء وارتديت الأخرى التي تحسن لي الرؤية، فظهر للجميع الهالات السُّود والتورم الكبير حول العينين، وانطلق رئيس لجنة المناقشة ليتحدث كثيرًا بكلمات المدح والشكر للباحثة وجهدها المدهش والمتفرد، كانت كلماته تروي عطشي في موضع آخر، أما الآن فهي كقطرات عسل بفم فاقد لحاسة التذوق، وأخيرًا توجه بالدفة نحوي ومنحني المقود عندما طالب بسماع كلمة الباحثة.

لمعت الأضواء بأكثر مما كانت فما اهتزت برأسي شعرة ارتباكًا لذلك، ولكن لست أدري لماذا جلت بناظري بين الجالسين باحثة عنهما، وعندما رأيت الكرسي المجهز لوالدي، ارتجت أعماقي وتجمعت الدموع كلها تتقاتل خلف قضبان عيني لتندفع خارجة كتلاميذ ينتظرون فسحتهم للانطلاق متناثرين بعشوائية للخارج، ولكن وقعت عيني عليه للمرة الأولى، إنه سعداوي .. كان يجلس بالصف الأخير كأنما يحرص على عدم الظهور وفي عينيه نظرة عجيبة لم أرها من قبل، نظرة كلها ترقب وتوجس، لست أدري لمَ أثارت نظرته هذه بداخلي الكثير من العناد وكأنما أريد إثبات نقيض ما يعتقد أمامه، تنفست بعمق وبسملت وقلت بهدوء وصوت خافت تكفل مكبر صوت القاعة الحساس بإظهاره للحاضرين:

- أولًا وقبل كل شيء كُنتُ أتمنَّى أن يكون في هذه القاعة أهم اثنين في حياتي، هم من ربَّياني وعلماني كل فضيلة، لولاهما ما كُنتُ الواقفة أمامكم، لولاهما ما كانت هذه الرسالة، لولاهما لكُنتُ هباءً منثورًا، كُنتُ أتمنَّى أن أريهما ثمرة تعبهما ورعايتهما لي حق الرعاية، إنهما أمي وأبي عليهما رحمة الله اللذين أهديهما كل حرف ونجاح ترونه أمامكم.

ورغمًا عني انفتح السياج الحابس للدموع لتنهمر بغزارة على لحن نحيبي، وانطلق تصفيق حار بالقاعة، ونطق رئيس اللجنة قائلًا:

- نعلم جميعًا أن الدكتورة شيماء فقدت أبويها في خلال الشهر الماضي، وكانت وفاة الوالد منذ أيام قليلة، وبالرغم من ذلك حرصت بمنتهى القوة على مناقشة الرسالة وعدم التأخر عن واجبها، وهذا مما يحتسب لها في رحلتها العملية، وجميعنا نقدر الحالة النفسية التي تمر بها.

ولم يشأ أن يعيد لي الدفة مرة أخرى وبدأ هو التحدث عن موضوع الرسالة وإظهار ما بها من جهد، وبدأ يوجه لي اللوم على التقصير في بعض الأمور وأنا أومىء برأسي موافقةً على ما بدا من انتقاص في الجهد، ولست أدري هل هو إعداد مسبق أم لا عندما طلب كل فرد من المناقشين مني قراءة مقطع معين من الرسالة. فكُنتُ أقرأه بنفس الصوت الشاحب، ويبدأ هو بعدها في كشف ما وراء السطور، ولم يوجه أحدهم لي سؤالًا إلا الأخير عندما سألني: ما المقصود بقولي كذا في أحد المقاطع وعندما أبين مقصدي ينطلق مشيدا بما ظهر له من قوة وبراعة وذكاء الباحثة!

ولأول مرة تكون مناقشة إحدى رسائل الماجستير بمثل هذا اللين، انتهت وجاء موعد الحديث المتلفز والصحفي لأجيب عنهم قدر استطاعتي بإجابات دبلوماسية عامة.

وفي النهاية تلقيت التهنئة من الجميع، وجاء هو متأخرًا مترددًا مرتبكًا ليقول لي بخفوت شديد:

- مبارك لك د. شيماء، لكم كُنتِ مميزة دائمًا وتستحقين كل نجاح في حياتك.

لستُ أدري لماذا كانت جملته هذه هي الجملة الوحيدة التي أخذت لُبِّي وأسعدتني بحق، ولكن بالطبع لم أكن لأتراقص أمامه مبتهجة بها، ولا ليفضحني صوتي برنة تظهر له ذلك، فكان الرد المعتاد الخافت والجامد بالشكر، ولكن يبدو أنه كان يعلم أو يدفعني للنهاية وذلك حين تنهد ورفع رأسه وقال لي :

- أودُّ أن أعلمك بأهم خبر في حياتي.

ومنحني أكبر مفاجأة في أغرب توقيت يمكن أن يحدث فيه ذلك)).

*****

كان سعداوي منكفئًا على مكتبه يخرج أوراقًا من حقيبته ويضعها بجانبه، ويجمع بعضها مع البعض الآخر، وبينما هو يفعل ذلك ارتفع رنين جواله ليأتيه النبأ بأن هناك حالةً حرجةً تستدعي وجوده بسُرعةٍ بالمستشفى، وعندما علم تفاصيل الحالة طلب منهم إعطاءها بعض العقاقير وترك ما بيده وانطلق مسرعًا ليحاول الحفاظ على حياتها، اصطدمت به زوجته بالصالة فقالت له:

- ماذا هناك؟!

قال بلهفة وهو يكمل مسيره:

- حالة حرجة تستدعي تدخلي الجراحي بسُرعةٍ.

- هل ستبيت خارجًا؟

من خلف الباب وقبيل أن يوصده قال بسُرعةٍ:

- لست أدري على حسب تطورها.

وصفق الباب وراءه بقوة، بينما وقفت هي حائرة لا تدري كيف سيصير الأمر، همت أن تعود لما كانت منشغلة به، ولكن رأت ضوء غرفة مكتبه مضاءً فذهبت لتغلقه، وإذا بها ترى الأوراق متناثرة بجوار حقيبته، فذهبت لتجمعها وتنظمها معيدةً إياها إلى الحقيبة، وبينما هي تفعل أمسكت بوثيقة جعلت عينيها تكادان تفرَّان من محجريهما، وشهقت بقوة وهي تضع يدها على فمها كأنما تمنعه من الاتساع أكثر من اللازم، وارتمت جالسة على الكرسي والأرض تدور بها وبدأت في فقدان الشعور الكلي بالعالم.

*****

مفكِّرة شيماء:

((كان موقفًا عجيبًا، لست أدري هل رأى ارتعادي المفاجئ وهل فضحتني ملامحي وأظهرت الهلع وأثر المفاجأة أم لا؟

ولكن تغير ملامحه وهو يقاوم اعتصارًا بها فضحه ورأيت أنه يظهر خلاف ما يبطن!

إذن لمَ كل هذا؟!

رغم أنني بقدمين متثاقلتين وبجسد مكدود ونفس مجهدة انطلقت برفقة خالد إلى الخارج، ولكن طوال جلستي بالسيارة لم تتوقف دموعي التي ظن من يراها أنها للجرح المعلوم لهم جميعًا، ولم يدرِ أو يشعر مخلوق أنها إنما كانت على إثر جملته المفاجئة حين قدَّم لي شابة هادئة الملامح تظهر الطيبة الخالصة على وجهها، لم أنتبه لها بالقاعة ولا لوقفتها إلى جواره أثناء تهنئتي، وقال لي:

- لقد عُقد قراني على صباح ابنة خالتي.

حسنًا لقد تمَّ تسطير النهاية بهذه الجملة وفي توقيت عجيب لست أدرى لمَ اختاره ولأي هدف فعل ذلك؟

أعلم بأني في اللقاء الأخير قسوت عليه، أعترف بأني ما زلت أراه متَّهمًا رئيسيًّا فيما ألمَّ بي، ولكن ألم يكن هُنالكَ فرصة لمنح هدنة عسى أن تهدأ الأمور وتستقر الأحوال؟

لقد كُنتُ أنازع خالد أخي في أمر السفر معه إلى ألمانيا والسبب الخفي هو أنك من تبقيت لي، عقلي الباطن هو كان صاحب ذلك القرار رغم أن تفكيري الواعي كان يقوم برجمك كل ليلة جراء ما جلبت لي، وها أنا أعترف بأني أحبك وأن المتبقي من حياتي كان في حاجة كبيرة إليك، أعترف بذلك بعد إدراكي أنه لم يعد هُنالكَ أي أمل في أي مخططات مستقبلية أو تفاعلات بيننا قد تجلب الاستقرار العاطفي والفكري عقب خروجي من انكساري الكبير.

سحقًا لكَ يا سعداوي ليتني ما رأيتك ولا تعاملت معك في حياتي كلها، أخذت جميع المواقف بيننا تتوارد إلى ذهني كشريطٍ سينمائيٍ جالبة معها حسرةً تعتصر قلبي وألمًا يفتك بي، وارتفع نحيبي بأكثر من اللازم حتى أن خالد أوقف السيارة وأخذ يربت على كتفي مواسيًا ويتحدث عن أن أبي وأمي الآن يفخران بي كثيرًا، وآثرت تركه معتقدًا ما يشاء، وأفلح سعداوي في تأييد قرار خالد بسفري معه إلى ألمانيا، وقد كان)).

*****

عاد سعداوي فجرًا بعد جهد شاق في جراحته المطولة وبقائه بجوار المريض في العناية المركزة حتى استقرار حالته، وأخيرًا بعد ست ساعات فتح باب شقته ليجدها كما تركها بنورها الهادئ يلفها الصمت التام، ظن زوجته قد خلدت إلى نومها ولكن بينما هو يعبر الصالة إلى غرفة النوم وجدها تجلس بمواجهته على كرسيها واضعة يسراها على مسند المقعد بينما اليمنى تتدلي بجوارها وتنظر نحوه بجمود تام كأنما هي تمثال تمَّ نحته على هذه الهيئة، نظر نحوها بدهشة وقال:

- هل تشتكين من شيء يا صباح؟

ظلت على جمودها بلا أي اختلاج لملامحها، فانتابه القلق واندفع نحوها ولكن قبل أن يصلها بنصف خطوة خرج صوتها بنغمة لم يسمعها منها من قبل، كان كأنما هو صوت معدني وهي تقول:

- أشهد لك أنك أروع زوج في الوجود...

توقف متنهدًا وقاطعها قائلًا:

- لقد فزعت، لِمَ هذه الدراما؟

بالجمود والصوت الآلي نفسه قالت:

- ما رأيت منك شرًا قط، ولكن لماذا؟

ارتفع حاجباه في تساؤل مندهش عما تعنيه بكلمة لماذا هذه فاستطردت قائلة:

- من هي شيماء عبد العزيز؟

تردد وارتبك ونظر نحو مكتبه متوجسًا فمدت يمناها إليه بالوثيقة قائلة:

- نعم لقد وجدت وثيقة زواجك بها.

ارتج سعداوي بقوة وتلجلجت الأحرف في فمه ولم يدر بم ينطق، فقالت:

- أذكر ارتباكك حين طلبت منك الزواج بأخرى، وذلك لأنك بالفعل قد فعلتها، هل كُنتَ تعيش معي تعاطفًا وشفقة لامرأة تموت؟ .. لم يكن حبًّا كل ما تفعله معي .. أعلم تكوينك جيدًا وأشهد لك أنك لن تفعل ذلك نزقًا أو مراهقةً، ولا يمكن لك الارتباط بها إلا لمحبة كبيرة لها، فهل حال فشل موتي دون سعادتك معها؟

ارتفع رأسه بحدة قائلًا:

- خلقني الله قادرًا على محبتكما بمنتهى الإخلاص والقوة، وربما لهذا أحل التعدد.

سالت دموعها وهزت رأسها وقالت:

- وخلقني سبحانه بطبيعة لا تقبل ولا تطيق ذلك.

- ألم تقولي أنك كُنتِ تطالبينني بذلك؟

- مجرد طلب بيقين من رفضك له، فلم أتخيل بكل المحبة التي تغمرني بها أن تذهب لذلك، وتذكر ما فعلته السيدة سارة بالسيدة هاجر عندما طاوعها زوجها في طلبها وقد كان نبيًّا!

- هل قصرت معك في شيء؟ لقد تأقلمت واعتدت على مغيبي عنك، هل سيفرق معك سبب هذا المغيب؟

نظرت له بلَوْمٍ وقالت من بين نشيجها:

- لا تدري أي ألم يعتصر قلبي الآن، فالمحب أكبر أناني ولا يطيق مشاركة آخرين في حبيبه، فما بالك بزواجه؟ .. بعد نزع الألم الجسدي مني ظهر لي ألمٌ أشد منه آلاف المرات، أتمنَّى الآن لو يتم التبديل بينهما.

تمعرت ملامح سعداوي وهو لا يدري بِمَ يجيبها فكفكفت دموعها وقالت:

- كُنتُ أظن نفسي على معرفة بكل ما يخصك، ولكن اتضح لي أنك تحمل بين جنبيك الكثير من الأسرار، أعتقد الآن هو الوقت المناسب لسكبها.

- عن أي أسرار تتحدثين؟

نظرت نحو شعره الأشيب بالكامل وقالت:

- أعتقد باستحالة إصابة رأسك بهذا الشيب التام في تلك المدة الوجيزة التي تركتك فيها، وكلما سألتك عن السبب هربت من الإجابة، فهل حان أوانها؟

تنهد سعداوي وقال بإجهاد شديد:

- حسنًا هل يمكننا نيل استراحة قصيرة؟ .. أنا الآن محطم جسديًّا ونفسيًّا، وأنت كذلك ستسمعين الكثير مما لا يروقك، ولكن سأخبرك بأدق التفاصيل، ووقتها قد تلتمسين لي العذر لم فعلت ذلك.

لم تجد ما ترد عليه به، وجاوبه صمتها بالموافقة.

*****

مفكِّرة شيماء:

((ثلاث سنوات قضيتها بألمانيا لم يكن ليحدث ذلك لولا إثقالي بمشهد سعداوي الأخير، أصبحت مصر بالنسبة لي أرض الألم، فلم يعد لي بها حبيبٌ، فلِمَ العودة؟

بالطبع لم أكن أنا التي تجلس منتشية مدللة تقضي وقتها في حصد وسائل التسلية والمتعة اللحظية، فبعد شهرين من سفري اجتزت حالة الاكتئاب الحاد التي أصابتني بمساعدة الكثير من الأدوية المخصصة لذلك، وعندما استفقت وعاد لي اتزاني المفتقد، بدأ التفكير العملي، ألمانيا تتميز بشكل خاص في جراحات العظام على مستوى العالم؛ لذا بالبحث عن مشكلة طبية تتشابك فيها جراحة الأعصاب مع

العظام، اخترت موضوعًا فريدًا وتقدمت به إلى الجامعات هناك لنيل درجة الدكتوراه بالبحث فيه، ويبدو أن سيرتي الذاتية وشهرتي التي تحققت في الوسط الطبي بفضل الدورية الطبية والقناة الأمريكية قد يسرا لي ذلك؛ فتمت الموافقة بسُرعةٍ، وبالفعل نلت الدرجة في عامين ونصف فقط، وحصلت على فرصة عمل جيدة بمستشفى كبير هناك، ووصلت للنجاح المهني الكبير والرضا النفسي نحو ذلك، تزوج أخي خالد من طبيبة سورية كانت تعمل معي بنفس المستشفى بمجال طب الأطفال، كانت تجمعني بها صداقة خاصة جميلة هونت عليَّ الكثير، كُنتُ قد بلغت الثانية والثلاثين من عمري، والعجيب أنه لم ينظر لي أحدهم هناك نظرة شفقة أو مواساة لعدم زواجي، كأن هذا أمرٌ طبيعيٌّ، أو أن الزواج ليس الشاغل الأساسي عندهم، والذي يجب معرفة وضع محدثك به، لم يسع من حولي في مساعدتي لجلب عريس ينتشلني من الضياع الذي أهوى نحوه كما هو الظن لدى الجميع بمصر!

لم يحاول أي رجل استغلال صراعي النفسي والرغبة في اللحاق بقطار الزواج لينسج حولي شباكه لأي غرض كان عفيفًا أو متلاعبًا، عدم محاصرة الجميع لي من أجل هذا الأمر منحني سلامًا نفسيًّا عجيبًا وجعلني أعيش دون الشعور بأن هُنالكَ مشكلة كبرى أغوص بها ويجب السعي لحلها، كانت هناك محاولات للارتباط ولكن عدم التوافق أفشلها، وكان التسريح بإحسان من هذه المحاولات يجعلك تشعر كأنك تعيش بمجتمع من الملائكة، ومجنون من يحاول الخروج من هذه الجنة!

ولكن ولأننا أحفاد آدم عليه السلام فقد طابت لنا سيرته بالخروج منها، فالراحة المطلقة بعد طول صراع وعناء واعتياد عليهما قد تصيبك بما يشبه متلازمة ستوكهولم الشهيرة؛ والتي بها تجد المريض يقع صريع حب جلاده، فرغم المثالية العليا في كل أمور حياتي سواء بالعمل أو المعيشية منها، كُنتُ أشعر بافتقادي للكثير، ولم أكن أدري ما هو؟ حتى جاء ذلك اليوم.

كان مجندًا مصريًا مصابًا في حادث إطلاق نار شهير تحدثت وسائل الإعلام عن بطولته فيه، وبعد العلاجات المتخصصة بالمستشفيات العسكرية هناك، كانت تلزمه عملية جراحية مرتبطة ارتباطا وثيقا بموضوع رسالة الدكتواره الخاصة بي، ولأن المستشفى الألماني قد اشتهر عالميًا بتميزه ونجاحه المطلق في نتائج هذه العملية فتمَّ إرساله إلينا لعلاجه، عندما ذهبت للكشف عليه عادت مصر كلها إليَّ، كان شابًا رقيقاً يحمل نفس النظرات الفزعة الراجية المستكينة التي كان يحملها متوسطي الحال بمصر، عندما علم بأني مصرية وتحدثت معه بلهجتنا منحني الكثير مما افتقدت واشتقت إليه، جميع العبارات المصرية العتيقة التي اهتز وجداني بسماعها منه، ردود الأفعال الاعتيادية التي كُنتُ أنغمس فيها ولا أدري قيمتها إلا بعد هجرها، عندما اتصلت بأهله عبر جوالي لمحادثتهم، سالت دموعي وأنا أسمعه يحادث أمه ويقول لها:

- أنت عاملة ايه يا آمّا

ولم يكف عن السؤال عن شقيقاته وأبيه وخالته وابنة عمته وأخيه الذي يعمل في ليبيا، وكلما هَمَّ أن ينهي المكالمة استحياء من تكلفتي كُنتُ أشيرله أن يستكمل، ولم يكن ذلك كرمًا مني وإنما لأنه دون أن يدري كان يسقيني من الرحيق الذي ينسكب من كلماته.

وبعد الأنس بالقرب من هذا المجند حينًا حتى تماثله للشفاء وسفره، علمت ما الذي افتقدته، إنها مصر.

فقد افتقدتها بكل مشاكلها وتناقضاتها، لقد كان النجاح والنجاة وسط أعاصيرها هو ما يعطي للحياة معنًى وهدفًا، فليست المعيشة اليسيرة السلسة المكتملة منزوعة المشاكل والصراعات هي الوسيلة التي ترضاها طبيعتنا البشرية، لقد خلقنا سبحانه في كَبَد، وكلما استمر هذا الصراع أيًا كانت درجته، حتى لو كان نفسيًا تستقر طبيعتنا البشرية رغم ما قد يعتريها من آلام نشكو منها أحيانًا؛ لذا .. فقد قررت العودة

لمصر بما أحمل بين جنبي من علم وبراعة في أمر نادر لن أحرمه العامة المطحونين بين شقي الرحى الاجتماعي والسياسي هناك، ولتكن فترة النقاهة التي قضيتها هنا لثلاث سنوات هي الزاد الذي منحني القوة والثبات اللازمين لاستمرار حياتي بشكل طبيعي، وبعد صراع مطول مع خالد لم يجد أمامه إلا موافقتي بعد ترتيب كل الأمور بشكل جيد وكيف ستكون حياتي هناك، مع ترك الباب مفتوحًا للرجوع إلى ألمانيا عند حدوث الانهيار مجددًا.

وأخيرًا .. فتحت باب شقتنا الحبيبة لتواجهني عاصفة من غبار الذكريات الشجية العتيقة، رأيت أمي تقف عند باب المطبخ تمسح يدها في فوطتها وعينيها متسعتين ودموعها تسيل منادية باسمي واندفعت نحوي وقد اشتاقت إليَّ كثيرًا، وأبي يعتدل ببطء أثناء وقوفه من جلسته على كرسيه المحبب أمام التلفاز وهو ينطق اسمي كذلك بصوت يحمل كل الشجن والسعادة لمرآي، ابتسمت وأنا أتذكرهما وخلعت حذائي لأضعه في صندوقه الخشبي المجاور للباب بعناية، وسحبت حقيبتي الوحيدة إلى الداخل، وتوجهت إلى غرفتي المنظمة والنظيفة التي اعتنت بها ابنة خالتي ونظفتها جيدًا قبل مجيئي، وبمنتهى الأناة رتبت كل أموري، واستنشقت نفسًا عميقًا منتشيةً بكل الهواء المغبر الذي عانق رئتي بمنتهى الشوق، وبعد الاتصال بكل أقاربي والاطمئنان عليهم، نلتُ قسطًا من الراحة واستعددت للحظة المواجهة المرتقبة في الغد بالمستشفى.

*****

وقفت أمام باب المستشفى أنظر لها بحنين وذكرياتي بها تتقافز أمامي، خطوت داخلها وكل دبة قدم على أرضها تحمل ثقة وقوة وحبًّا، وكل سلام وترحيب وكلمة تطرق أذني تزيدني سعادة وفرحة، بعد الانتهاء من مقابلة رئيس القسم وترحيبه الكبير بي وبعد الانتهاء من كل الأمور الإدارية طفت بالقسم لأتحسس أخباره واستعيد معه

شعور العودة والأمان بالاستقرار فيه، وهناك رأيته وقد زادت أناقته ببدلته اللامعة ونظارته المتناسبة مع وجهه، كان جالسًا على مكتب منفرد ويتحدث بجواله بمنتهى الاهتمام؛ لذا توجهت إليه مباشرة، يجب المواجهة الأولى التي تحدد سير الأحداث فيما بعد، وعندما رآني اتسعت عيناه وتوقف عن الكلام وارتخت يده الحاملة لجواله مبتعدة عن أذنه وقام واقفًا، تعلمت أن زمام المبادرة إذا جاء منك يمنحك القوة والسيطرة ويدفع الطرف الآخر للانقياد إلى ما أردت غالبًا؛ لذا ابتسمت وقلت بصوت فرح:

- د. محمد كيف حالك، أفتقدك وأفتقد كل أيامنا الجميلة بالمستشفى.

ويبدو أن دهشته قد تصاعدت ليس لمرآي فقط وإنما لرد فعلي غير المتوقع له، فما كان منه إلا أن سمح لابتسامته العريضة بالارتسام على وجهه وقال بفرحة حقيقية شعرت بها في نبرات صوته:

- دكتورة شيماء حمدًا لله على سلامتك، لقد أنرت المستشفى.

وبهذا تمَّ تجاوز كل شيء، وبالفعل كان التعامل بعدها تلقائيا وسلسًا وطبيعيًا، لا أنكر سعي لمعرفة هل رزق بأبناء أم لا، ولم يغب عني بحثه بين أصابعي عن دلالة للارتباط دون سؤال، وكان من الطبيعي أن تفشل جميع محاولات الارتباط من الزملاء أو غيرهم، لست أدري لِمَ يظن البعض أن ارتباطه بمن تجاوزت الثلاثين هو تفضل وكرم منه يجب أن يصحبه تنازلات كبيرة من الطرف الآخر!

ولكن ثقتي بنفسي وسلامي الداخلي جعلاني أتجاوز هذه الأزمة التي تطحن مثيلاتي، اكتشفت الكثير من مشاغل الحياة التي إن أخلصت لها استغرقتك ودهست في طريقها كل صراع وآلام الفراغ الوقتي الجالب لرفيقه النفسي، ومرت الأعوام سريعًا حتى جاوزت الأربعين وقد توقفت جميع المحاولات أو الإشارات أو نصب الفخاخ حولي، ولست أنكر أن مجرد الأنس بالقرب من سعداوي كان كافيًا بالنسبة لي، أسهمت معه في تأسيس مستشفى خاص حققنا فيه كل المعايير الكبرى للعمل

الطبي العالمي، وخصصنا بجانب الربح قسمًا مجانيًا يتم فيه جلب الحالات التي لا تجد علاجًا بالمستشفى الجامعي والمرض يهدد حياتها، واعتبرنا ذلك رسالةً وزكاة منَّا عن علمنا وعن العائد المادي الكبير الذي نحصل عليه من أعمالنا، حتى جاءت أزمة زوجته التي حطمته ونالت منه؛ ورثينا جميعًا لحاله، وكم دعوت الله أن يشفيها حتى يعود لطبيعته التي بت لا أجد الحياة مستقرة إلا بجوارها، حزم أمره وسافر إلى اليابان بحثًا عن معلومة تساعده في تخفيف الألم عن زوجته، ورغم مناقشتي المطولة معه عن جدوى هذا الأمر، إلا أنه تحدث عن عزمه على عدم التأخر في فعل أي شيء حتى يؤدي ما عليه نحوها، وبعد سفره أرسل لي مفاجأة عجيبة لم أتخيلها ولا توقعتها في هذا التوقيت.

كُنتُ أغط في نومٍ عميقٍ عندما تواصل رنين جوالي، فاستيقظت ناظرة إلى شاشته فكان رقمًا طويلًا وعجيبًا فرددت عليه لأجده سعداوي يتصل من السويد ويقول لي بأنه متهم في قضية قتل، ارتبكت وفزعت ولم أدر ماذا أفعل وعندما سألته ماذا يمكنني تقديمه صدمني بجملته حين قال:

- أتصل بك لأخبرك بشيء واحد، أني أحبك ولم أحب مخلوقًا بمثل ما أحببتك به، وأطلب منك مسامحتي عن أي ضرر ألحقته بك.

لو كان قالها لي منذ خمسة عشر عامًا لربما فقدتُ الوعي من شدة السعادة، ولكن التوقيت عجيب جدًّا، فلم أعد أنا الباحثة عن الحب وهو في حال لا يستوجب منه ذلك، فلمَ؟

كان صمتي المطول تفكرًا في طريقة الرد السليمة عليه، أعتقد أنه في حالة انكسار كبيرة، مرض زوجته وضعفه واتهامه وإحساسه بالضياع؛ لذا يجب عليَّ مساندته وتجاوز أي أمر آخر، ولهذا توجهت بسير الكلام نحو هذا الدعم النفسي والذي يحتاجه بقوة الآن، والحمد لله عند نهاية المحادثة شعرت بنجاحي في ذلك، وبعد الانتهاء منها جلست أتفكر، أنا لم أتعامل مع زوجته مطلقًا منذ رؤيتها يوم مناقشة رسالتي، إلا في لقاءات سريعة وغير مباشرة أثناء مرضها، من واقع الخبرة الطبية فأيامها معدودة

بالفعل، فهل أفتح له الباب الآن ولا أضيعه بمثل ما فعلت سابقًا؟

انتابني تأنيب الضمير في أن تكون سعادتي مبنية على موت أخرى، ولكن ليس بيدي شيء لأمنع عنها ذلك، زوجها وكل طاقم المستشفى الطبي بذل وسعه نحوها وما زلنا، وبالتالي فهي إرادة الله الذي أراد مكافأتي بعد طول صبري، ارتحت لهذا التفكير، وكأنما هو تكفير أو تطهر كُنتُ أذهب يوميًّا إلى زوجته في غيبوبتها لأتابع حالتها بمنتهى الدقة، وعاد سعداوي من السويد بعد تبرئته، وتمَّ القرب منه كثيرًا، وكانت محادثتي اليومية معه سببًا في خروجه من حالة الانهيار التي أصيب بها قبل سفره، فعاد لعمله بالمستشفى وعيادته الخاصة، وعندما سألته عن محاولة إفاقة زوجته، قال إنها الآن في راحة كبرى من آلامها ولا يريد لها العودة للمعاناة حتى يصل لحلٍّ حاسمٍ، وبالفعل شاركته أبحاثه حول ذلك، ولكن كان جَلِيٌّ لنا أننا نبحث عن وسيلة تمنع آلامها في أيامها المتبقية، مع يقين بأنها حتمًا ستغادر هذه الدنيا، وأخيرًا جاء إليّ فرِحًا سعيدًا وهو يقول إنه قد صار قاب قوسين أو أدني من الوصول للحل، ولكن سيسافر إلى اليابان مرة أخرى، تخوفت بسبب نتيجة سفره السابق ومع حماسه الكبير لم أستطع منعه من ذلك، ليعود بعد أسبوع واحد حاملًا معه كمًّا كبيرًا من المفاجآت)).

*****

نظر سعداوي نحو السلم الذي لم ينتبه له من قبل والذي يفضي للطابق العلوي، وقال بتلقائية:

- البرج بالأعلى هو برج السرطان؟ .. هل سأجلب لك منه شيئًا؟

حافظ عم أكيرا على ابتسامته وقال بعمق وبصوت له صدى خاص:

- اذهب وامكث به فقط نصف الساعة، وحاول أن تعود سالما.

كاد سعداوي أن يقهقه هذه المرة ولكن رد عليه قائلًا:

- حاضر يا جدي، السلام عليكم.

وبخطوات سريعة ارتقى ذلك الدرج في رحلته إلى برج السرطان.

كان مغلقا بباب خشبي مزين برسمات عجيبة لم يكن لديه رفاهية البحث فيها ومحاولة معرفة دلائلها، دفع الباب لينفرج بأزيز عجيب شعر له بصدى وتردد أعجب، كانت في مقابلته ظلمة حادة وغريبة بسواد تام لا تشوبه شائبة، حتى أن الضوء القادم من الأسفل لا يكشف شيئًا للداخل، بحث بيده عن مفتاح إضاءة الأنوار ولم يجد، وبينما هو يخطو للداخل خطوة عسى أن يجد ذلك المفتاح أُغلق الباب بقوة صنعت صوتًا يجاوز صوت انفجار قنبلة بجوار أُذُنه، تعجَّب من مقدرة الباب على فعل ذلك، ولكن انتابته رعدة عندما وجد أنه قد أصبح في وضع لا يفرق معه إغلاق عينيه من فتحهما، هم أن يهبط ليلوم الرجل ومُسائلًا عن استفادته من ذلك، ولكن نصف الساعة ليس بكثير، إن كان ذلك المخبول سيستمتع بإخافته هكذا كالأطفال مقابل منحه تلك المادة التي جاء من أجلها سيتحمل وينتظرها، سكن ملتصقًا بالحائط ومن بين الصمت التام طرق أذنه حفيف خفيف يقترب منه، توجست مشاعره وهو لا يدري مصدر هذا الصوت وقبل أن يتحرك إذا بجسم أُسطوانيّ ناعمٍ وباردٍ يزحف صاعدًا على ساقه اليمنى، جذب ساقه بسُرعةٍ وقد أفلتت منه صرخة مكتومة، ولكن الشيء كان أسرع منه وقد وصل لجذعه والتف حوله بسُرعةٍ صاعدًا لأعلى واقترب من أذنه فحيح يعرف صوته جيدا، ولم يتمكن من الارتعاد مجددًا بعد أن علم أنه محاصر داخل أفعى كبيرة التفت حوله بشكل اسطواني وقد تكون الآن متسعة الفم الساعي لابتلاعه، لقد كان يخشى الأفاعي ويرتعب منها في صغره، وتكون المفارقة أن نهايته ستصير داخل بطن إحداها، حاول المقاومة ولكن كانت تجابهه بزيادة الاعتصار حتى كادت تخنِقُ أنفاسه؛ لذا آثر الموت بهدوء وسالت دموعه وهو ينطق الشهادتين ويتمتم ببعض آيات القرآن، ولعجبة فور فعله ذلك ساد الضوء أرجاء المكان فجأة وكأنما قد أشرقت شمس بسقفه، ليجد أمامه مشهدا سيرياليا

بامتياز، فقد كانت أمامه غابةٌ ثريةٌ تعجُّ بالأشجار الكثيفة متشابكة الأغصان، لم يكن لديه ترف التساؤل عن كيفية وجود هذه الغابة بالطابق الثاني من المنزل، وهو يكاد يختنق بعضلات تلك «الأصلة السوداء» التي تقف برأسها أمام رأسه تمامًا حتى يكاد يشعر بعينيها تتفرسان عينيه، وإذا بزئير قوي يقتحم المكان الذي ارتج على إثره، وزاد الحفيف ليخرج من بين ستائر الأغصان أسدًا مهيبًا يلمع بلونه الذهبي البراق وشعره الكثيف حول رأسه كأنه التاج المميز والناطق بأنه الملك، ارتدت رأس الأفعى جانبًا على إثر ذلك الزئير، وكأنما قد دار بينها وبين الأسد حوارًا خاصًّا فقد ارتخت قليلًا حول جسد سعداوي لتسمح له بالتنفس الطبيعي، يبدو أنهما يتنافسان على الوليمة وسوف يقتسمانها الآن، لَكَم عشق الأسد في صغره وكان يراه أرقى الحيوانات وأشدها قوة، وعند عبوره بجواره في حديقة الحيوان كان يرتجف بإحساس يقيني أن الأسد قادر على كسر قفصه الحديدي والتهام الجميع وبسُرعةٍ، وها هو بالقرب من أنيابه من دون أقفاص حامية، اقترب الأسد منه وتشممه وكأنما يُثَّمِن الوجبة قبل البدء في التهامها، أيقن سعداوي من النهاية فعاد إلى ترديد آيات القرآن الكريم، ويبدو أن ذلك كان مخرجه من الأسد كما كان مخرجه من الأصلة قبل أن تبتلعه، فقد أقعى الأسد أمامه وفي مواجهته، وعيناه الخضراوتان تنظران له بعمق عجيب، لم يتخيل سعداوي هذا المشهد في أبشع كوابيسه، رقبته على بعد سنتيمرات من أفعى عملاقة، وعيني أسد مفترس ضخم تتسلي بانكساره، ورغم رعبه الشديد ويأسه في النجاة لم يتوقف عن ترديد آيات القرآن وقد علا صوته بها كأنما يبغي صرفهما بذلك، وإذا بصوتٍ عميقٍ يحتوي كل المكان كأنما هو صادر عن مكبرات زرعت بكل سنتيمتر فيه يخاطبه بعاميته المصرية قائلًا:

- الآن فقط شعرت بأن القرآن الكريم هو المنجاة لك؟

نظر سعداوي نحو الأسد الذي لم يكف عن التحديق به وإلى الأفعى التي تهتز رأسها بجوار رأسه وقال بتردُّدٍ وخوف:

- من أنت؟

بنفس الصوت الجهوري العميق الذي يكاد يخترق عظامه، نطق الصوت قائلًا:

- أنا المسئول عن حسابك الآن، وسيتخفف عنك عقاب كل جريمة تعترف بها.

احتار سعداوي عن مقصده بالحساب، ازدرد ريقه ليتأكد بأنه حي يرزق ولم يمت بعد، وعندما اطمأن لذلك وتيقن بأنه ليس في حساب أخروي قال:

- عن أي شيء سوف تحاسبني؟

علت صرامة الصوت بأكثر مما هي حتى أن سعداوي قد ارتعد لارتفاعه المفاجئ وهو يقول:

- عن كل جرائمك التي ارتكبتها.

- لم أرتكب جرائم قط.

جاوبه هذه المرة صوت رعد قوي صاحَبَه برق لمع بثلاثة مناطق أمامه، وإذا بالأصلة بدأت في اعتصاره مجددًا، وفجأة هجم عليه الأسد ليقضم كفه اليمنى دفعة واحدة، لترتفع صرخة سعداوي على إثر الألم الذي أحرق ساعده الأيمن بعد انتزاع الكف منه، وبدأت أنفاسه تخفت وتشوشت الرؤية أمامه، فنطق بصوت مختنق قائلًا:

- حسنًا سأعترف بجرائمي.

ما إن نطقها حتى عادت إليه أنفاسه بعد أن ارتخت الأفعى عنه مجددًا، ظل يلهث وهو ينظر ليده التي تتقطر منها الدماء ويصعد منها صواعق تكويه مباشرة على طول ما تبقى من ذراعه، والأسد أمامه يمضغ ما حصل عليه باستمتاع شديد، وانطلق الصوت قائلًا:

- الآن علمت عاقبة الكذب، فلا تفعلها مجددًا.

قال سعداوي بصوت شبه باكٍ:

- أعدك ألا أفعل.

- حسنًا فلتنطلق وتخبرني بجريمتك الأولى.

نسي سعداوي ألم ذارعه تمامًا وقد اعتصره ألم آخر عند تذكر ما ينتوي النطق به، فهز رأسه بأسى وقال بخفوت:

- لقد ضيعت حق قتيل.

- أريد التفاصيل كاملة.

- جاءنا رجل ميت باستقبال المستشفى في يوم من الأيام، يحمله رجال الشرطة ويريدون تقريرًا بأن موته كان طبيعيًّا، وقتها قمت بدور البطولة أملاً في نيل إعجاب إحدى الزميلات التي تهمني بشكل خاص، وانتهى الموقف بأفضل ما يكون وقد نلت بغيتي منها ورأيت في عينيها نظرة التقدير التي سعيت إليها، ولكن بعد مدة وَقعتُ في أزمة اتهامي باغتصاب مريضة؛ وقد كان فخًّا منصوبًا لي ليتم مساومتي، فهناك بقسم الشرطة قيلت لي صراحة بأن التحقيقات في سير قضية ذلك الميت تسير في اتجاه إدانة رجال الشرطة بعد ثبوت موته على إثر التعذيب، وأن الأمر من السهل أن ينتهي بيُسر وبشكل يرضي الجميع إذا وقعت على الشهادة التي معهم بأن الرجل قد مات في استقبال المستشفى بسكتة قلبية، حاولت المقاومة ليومين، ولكن مع إحكام التهمة حولي وإدانتي بأبشع ما يمكن أن يشوه سمعة طبيب ويضيع مستقبله، ومع الضغط النفسي المتزايد منهم ضَعفت إرادتي وفعلت لهم ما شاءوا وضاع حق القتيل، والعجيب أني خرجت من الموقف بطلًا أمام زملائي ولم أستطع البوح بذلك إلا لك الآن.

ساد الصمت مليًّا وسكنت الأشياء حتى يكاد يخيَّل إلى سعداوي أن كل شيء قد تجمد أمامه، وأخيرًا نطق الصوت مجددًا قائلًا:

- وماذا فعلت للتكفير عن هذا الذنب؟

بكل المرارة نطق سعداوي قائلًا:

- لا شيء سوى معرفة أسرة القتيل وتقديم مساعدة مالية مرة أو مرتين لهم وفقط.

- لو خرجت من هنا حيًّا، هل تنوي التكفير السليم؟

قال سعداوي بلهفة وقد راوده الأمل في الخروج فور إشارة الصوت له:

- أعدك أن أذهب لهم وأرى شأنهم لأحاول تعويضهم بأقصى ما أستطيع.

- أحسنت.

خففت الأفعى كثيرًا من الضغط على سعداوي حتى أنه أصبح بإمكانه تحريك ساعده قليلًا، ووجد ماءً ينساب أمامه كأنما قد فتح أحدهم صنبورًا ليسقيه فاكتشف جفاف حلقه فمد رقبته للأمام قليلًا، وعيناه تواجه عيني الأفعى التي أفسحت المجال له كأنما تبثه اطمئنانًا وبدأ في ارتشاف الماء الذي شعر به عذبًا نقيًّا، وبعد أن ارتوى ساءله الصوت مجددًا:

- وماذا بعد؟

رد سعداوي بسُرعةٍ قائلًا:

- عبد الكريم المساعد لي بعيادتي، أعلم كل نقائصه وخلقه السيء، ولكن كُنتُ أحتفظ به ربَّما لأنه الموازن الذي يشعرني بالسمو، ولجأت إليه في مهمة غير قانونية لعلمي بقدرته التامة على فعلها.

بدأت الأفعى نحو التحرك ببطء في اتجاه الاعتصار ونطق الصوت بصرامة قائلًا:

- دعك من الترهات ولتأت بالجرائم الكبرى.

صرخ سعداوي قائلًا:

- حسنًا حسنًا سأتكلم.

توقفت الأفعى، وساد الصمت التام مترقبًا حديث سعداوي واعترافه التالي، والذي سكت مليًّا وضغط بأسنانه على شفتيه وهو يقاوم مجهولًا، وعندما طال صمته بدأت الأفعى في الضغط وهَمَّ الأسد بأن يتحرك نحوه فصرخ قائلًا:

- شيماء زميلتي.

عاد الرعد مرافقًا البرق مجددًا وعلا الصوت قائلًا:

- ماذا عنها؟

قال وهو يكاد يبكي:

- أنا من ضيع الكثير من سعادتها في حياتها.

جاوبه الصمت بما يعني أن استمر فقال بأسى شديد:

- منذ أن كنا زملاء أثناء دراستنا وأراها مميزة متفردة لا تشبه أيًّا من الزميلات، كانت نظراتي تلاحقها، كُنتُ أتعمد المرور بجوارها حين حديثها مع زميلاتها لمجرد سماع صوتها الذي كان يطربني، وعندما جاءت سنة التدريب المسماة بالامتياز، دفعت رشوة للمسئول عن توزيع الأطباء مقابل أن يجعلنا سويًّا في كل أقسام التدريب، وطوال وجودها معي لا أمَلُّ النظر إلى وجهها حين لا تنتبه لي، وعند أول أزمة حدثت لها وبسبب متابعتي الدقيقة، كُنتُ أعلم سبب بكائها عندما مات الرجل وقد أخبرها بأنه ذاهب إليه وتركته، فقلت لها بأنها قد اجتهدت ولها أجر المجتهد مما أراحها وقتها، غامرت باصطناع بطولة أمامها مع رجال الشرطة فقط للفوز بنظرة رضا منها، ولكن كان تحفظها الدائم وعدم منح أي إشارة للقبول مكبلًا لي، وكانت فترة النيابة القاتلة، لم يعد بيدي التحكم في شيء لأجعلها بالقرب مني، ازدادت الأعمال والواجبات ورفضت هي حتى العمل الخارجي معي بأحد المستشفيات الخاصة، وذبحتني حينما علمت بخطبتها من زميلنا هاني، وقتها حدث الانهيار الأول لي في حياتي، وكُنتُ أصفع

obeikandl.com

نفسي بالأحذية جراء تقصيري، مسئولياتي العائلية نحو أبي وإخوتي مع الحاجة المادية ليست سببًا لأن أتقاعس حتى للاعتراف لها برغبتي في الارتباط بها ولو بعد حين، لماذا تأخرت، حتى لو كان منها الصدود في كل معاملاتنا سويًا؛ فمجرد السير في الطريق الرسمي السليم سيخفف عنا الكثير، ومستقبلي يشفع لي سوء حالتي المادية الآن، ولكن سبقني هاني والذي لا يفرق عني إلا في السن فقط؛ ولذا عندما جمعنا العمل بعدها كدتُ أصاب بالجنون، حلمك الذي كُنتُ تسعى إليه وبذلت الجهد لأجله يتراقص أمامك ساخرًا منك ويخبرك باستحالة الوصول إليه، كُنتُ عصبيًا مرتبكًا كثير الخطأ، ولكن .. بعدها عزمت على عدم الاستسلام، لن يختطفها هاني مني، وبكل أناة وصبر رسمت خطتي، هاني شاب طموح جدًا لو ألقيت له طُعمًا يتناسب مع طموحه سيلتقطه بمنتهى اللهفة، وقد كان، بذلت كل جهدي للوصول إلى اصطياد منحة بجامعة بنسلفانيا وكُنتُ أراسلهم باسم هاني وذلك بعد أن اقتربت منه ونلت صداقته حتى أنني كُنتُ أحد أهم المنظمين لحفل مناقشة رسالته، وبعد تذليل كل العقبات نجحت في الحصول على الموافقة لهذه المنحة، وبكذبة سريعة قلت له أني راسلت الجامعة بأسمائنا جميعًا ولكنهم قبلوا به وحده، احتضنني مقبلاً فرحًا مبتهجًا وهو لا يكاد يصدق الهدية التي هبطت عليه من السماء، وكما توقعت تمامًا .. ارتسمت بسمتي الماكرة المنتصرة عندما تسببت في عودة شيماء من براثنه، بالطبع خرجتْ هي من التجربة بحزن لست أدري هل سببه محبة هاني أم ماذا، غابت أيامًا عن المستشفى قمت بضبط كل الأمور لأجلها، وأصبحت أنا النائب السينيور وبيدي كل السلطات لجذبها والإبقاء عليها معي، وبدأت الحياة في الانتعاش وقد عادت لتتفاعل معي بأفضل ما يكون حتى أنها طالبتني بإلقاء نكتة فما رأيت وجهها بأجمل مما رأيته به حين ضحكتها على إثرها، تمنيت لو أظل معها ألقي عليها النكات بلا انقطاع حتى لا يخفت هذا الإشراق البديع الذي أنارت به ظلام قلبي، وعزمت أن أفاتحها في المرة القادمة بمطلبي للارتباط بها.

صمت سعداوي هنيهة فنطق الصوت قائلا بعمق :

- وما الذي جعلك تصطفيها هكذا من بين كل زميلاتها؟

هز سعداوي رأسه في حسرة ورفعها بقوة قائلا :

- لا تسألني لماذا أحببتها.

جاوبه الصمت التام فاستطرد ليكمل حديثه قائلا :

وبدلا من مفاتحتها في أمر الارتباط بها، حدثت الكارثة التي حالت دون ذلك، فقد ماتت أمها فجأة وعادت بعد الوفاة تطالبني بالبعد عنها وعدم الاقتراب منها وكأنما أنا من قتل أمها، تعجبي الكبير من موقفها وعدم الوصول لتفسير له مع ألم الكرامة المهدرة أمامها جعلني أبتعد عنها بالفعل طوال شهر انتهى بوفاة أبيها، كانت صدمة كبرى لي كذلك، تألمت بقوة لأجلها، فمنذ وفاة أمي وقد شعرت باليتم الحقيقي، فما بالك بأنثى فقدت والديها بمثل هذا التقارب الزمني؟ قررت التنازل والذهاب للتعزية ولكنها كانت برفقة النساء ولا يمكن الوصول إليها، فجالست أخاها وعرفته بنفسي وتحدثنا مطولًا ليصدمني بجملة من بين ثنايا كلامه قضت على أي أمل مستقبلي، وذلك حين أخبرني بأنها سترافقه إلى ألمانيا بلا عودة، في هذه الليلة لم أَذُق طعم النوم وأنا أتقلب على الجمر، لقد خسرتها تمامًا وبلا أمل، ورد فعلها معي عقب وفاة أمها لم يكن لحزن أصابها باضطراب يمكن أن يزول بمرور الوقت، ترى هل علمت بما فعلته مع هاني؟ .. أم علمت بجريرتي نحو قتيل الشرطة؟ .. أيًّا كان ما وصلت إليه فهي قد نبذتني للأبد وقطعت أي أواصر يمكن وصلها، ولست أدري لِمَ تصاعد بداخلي شعور يدفعني للانتقام، إن كُنتُ لا أعنيك وترين أنني عبء عليك سترين بأنك لا تمثلين شيئًا لي، وفي اليوم التالي مباشرة ذهبت لخطبة صباح ابنة خالتي التي كم سعت أمها وأمي قبيل وفاتها للتوفيق بيننا، وكان الرضا والفرح الكبير من الجميع، وقلت لهم لسنا في حاجة للخطبة أريد عقدًا مباشرًا للزواج وبسُرعةٍ، وتمَّ ذلك في

خلال أسبوع واحد قبيل حفل مناقشة رسالة الماجستير المشهود، صَحِبتُ صباح متباهيًا بها أمام شيماء في يومها الأخير بالمستشفى، ولكن شعرت وقتها كم كُنتُ حقيرًا بفعلتي هذه، لقد رأيت منها قشعريرة كأنما قد مسَّها تيارٌ كهربائيٌّ فور سماع الخبر مني، وخرج صوتها يجاهد الخرس لتبارك لي واندفعت للخارج بسُرعةٍ، مما أعلمني خطأ كل ظنوني التي عجَّلت لي بكل ما فات، سافرت بلا رجعة، وتزوجت صباحَ وكان لها في رقبتي ذنب يجب التكفير عنه، وهو أنها كانت أداة للضرب في معركتي مع شيماء، هذه الطيبة الوديعة البديعة المسكينة لن تدفع ضريبة أخطائي، فمنحتها من طيب المعاملة ما أستطيع، وهي برقتها وروحها الجميلة دفعت بحبها إلى قلبي، فصارت هي الملكة المتوجة به وانتهت شيماء وصارت ذكرى بعيدة جميلة وفقط، حتى عادت بعد سنين من سفرها لأكتشف أنها قد صارت كما أريد تمامًا، تعامل سهل تلقائي بلا أي قلاقل أو صراع على إثر تاريخنا المزري، محبتي لصباح وإخلاصي نحوها حتَّمَا عليَّ الوفاء لها، فأصبحت أسعد فقط بصحبة شيماء كزميلة في العمل، وأنهل في بيتي كل جميل مع زوجتي، حتى حدث ذلك المرض الذي أثار كل القلاقل وحرك كل القديم وأظهر لي بأن شيماء هي مليكة قلبي الحقيقية، فعندما كُنتُ بالسويد وقت الانكسار الكبير والشعور بالضياع الأخير، لم أجد من يمكِّنني الحديث معه سواها، فاتصلت بها واعترفت لها بحبي، وبعد عودتي تقربت منها مجددًا وبيننا ميثاق غير مكتوب أنها ستكون زوجتي ولكن بعد وفاة صباح، وهذه الأخيرة سوف أوفيها حقها من العناية والمحبة حتى النفس الأخير.

صمت سعداوي عن الكلام وعادت دموعه لتتسيده يصحبها النحيب، وبعد أن سكت قليلًا خرج الصوت العميق قائلًا:

- أذنبت في حقها بالكثير، فكيف ستكفر عن ذلك؟

أخذت الأفكار تتصارع في رأس سعداوي وهو يستعيد تاريخه بالكامل مع شيماء ويفترض العالم الموازي لكل ما صار بينهما، وكيف كانت ستتغير حياتهما لو تغير مسار الأحداث من البداية، فرفع رأسه وقال بقوة:

- سأتزوجها فور عودتي إلى مصر، كفى كذبًا على النفس وكفى تأجيلًا وتسويفًا ضيع علينا الكثير.

وإذا بالحية تنفك من حول سعداوي وتسير مبتعدة عنه جنبًا إلى جنبٍ مع الأسد الذي يتهادى في مشيته متبخترًا، فظن بأن الأمر قد انتهى وقد نال النجاة، ولكن بعد اختفاء الوحشين، إذا بجسدين واقفين أمامه لا يدري متى ظهرا هكذا من العدم، كانتا صباح وشيماء.

نطقت شيماء قائلة:

- هل كُنتُ أستحق منك كل ذلك؟

وقالت صباح باكية:

- هل قصرت معك في شيء؟

وإذا بالاثنتين تكشفان عن أنياب حادة وتندفعان نحو رقبته كل واحدة من جانب تقولان:

- لا تستحق الحياة.

وانغرست الأنياب في أوردته التي سالت منها الدماء وهو يصرخ وينتفض بقوة، ومن بين الألم بدأت تتفتح له السماوات وشعر بنفسه يرتقي إليها وساد الظلام والسكون كل شيء.

*****

- ذلك الكأس الذي منحنى إيَّاه عم أكبرا كان يحوي عقارًا من ابتكاراته أطلق عليه اسم (أثير الحقائق) وهو يشبه عقاقير الهلوسة ولكن يدفع بكل مخاوف المرء إلى خياله ويجعله يسعى للتطهر عبر هلوسته تلك؛ ولذا عانيت في هلوستي من مخاوفي القديمة المتمثلة في الثعبان والأسد وتَحَسُّبَ ساعة الحساب الأخروي، وحدثت مواجهة النفس والاعتراف رغبة في التطهر بمثل ما قصصت عليك، دفعني الشيخ

obeikandl.com

الياباني نحو ذلك كثمن مستحق لمنحي ما أريد، ولست أدري ما نفعه منه، وبالطبع كان كل ذلك الهول كفيلًا بأن يشيب شعري بأكمله، فقد واجهت رعبًا لا قِبَلَ لي به والذي انتهى بشعور يماثل الوفاة تمامًا.

نطق سعداوي بهذه الجملة عقب اعترافه بكل شيء أمام زوجته، التي كفكفت دموعها وقالت:

- لست أدري ماذا أقول، المسكينة عانت بسببك كثيرًا وما كانت لتستحقَّ ذلك، وزواجك بها كان من المفترض به أن يسبق معرفتي بك، وقد تأخر كثيرًا بالفعل، وبعد أن تمَّ بهذا الشكل الدرامي العجيب، لا ألومك ولا ألومها على شيء، ولكن أُعذر فطرتي التي دفعت بكل هذا الألم إلى صدري، وحتمًا سأعتاد على معايشته.

أمسك سعداوي بكفيها وقبلهما وقال لها:

- أقسم بالله أني أحبك من كل أعماق قلبي، وسعادتي في هذه الحياة لا تستقيم إلا بك.

قالت بصوت متهدج:

- أعلم ذلك.

أخذت تنتحب قليلًا ثم كفكفت دموعها ورفعت رأسها وقالت:

- هل تعلم .. حين اشتد ألمي الجسدي كم تمنيت لو اختفى إحساسي به، وعندما تحقق كما رأيت أنت بنفسك أصبحت عودته أمنية عزيزة؛ ولذا ومع الألم النفسي الملم بي الآن، سأتحمله وأتعايش معه ولن أتمنَّى الخلاص منه، فالله أعلم ما العاقبة لو حرمت منه كذلك.

*****

مفكِّرة شيماء:

((عاد سعداوي من اليابان بشعر أشيب من المستحيل أن يحدث في هذه المدة الوجيزة، ورفض تمامًا الإفصاح عن سببه، ولكن كان صارمًا حاسمًا في كل كلامه وقراراته بما يخالف اللين الذي اشتهر به، وإذ به يقولها صريحة لي بأنه يريد الزواج بي واليوم قبل غد، تراقصت السعادة بين جنبي بسبب طلبه هذا، وعندما أخبرته بأن الظرف لا يناسب ذلك، قال بمنتهى الصرامة:

- لقد تأخرنا خمسة عشر عامًا بسبب انتظار الوقت المناسب، لن أسمح لأي ظرف طارئ قادم أن يفرق بيننا مجددًا، زوجتي لن أقصر معها في شيء، وأنت لا تستحقين مني أكثر مما فات.

لم أفهم مقصده بكلمة أكثر مما فات، ولكن بعد جدال طويل تمت الموافقة وفي خلال أسبوع واحد تمَّ الزواج الذي كان الترتيب له سريعًا ومفاجئًا، حتى أن خالد أخي لم يمكث بمصر أكثر من ثلاثة أيام فقط لأجل زواجي، ونجحت العملية الجراحية المرادة بشكل مدهش، واستفاقت صباح لتأخذ سعداوي مني مجددًا، لم يكن بيدي ولا يمكنني التدخل في أي شيء يؤثرها به، فأيامها معدودة وتستحق منه التجرد لها؛ لذا كلما حدث ما يثير غيرتي أتذكر أن المتبقي لي بهذه الدنيا أكثر منها بكثير، فيشفع لها عندي بأن أعتصر داخليًا وأتفادى أي مواجهة تسوؤها، ولكن شاء المولى عزوجل أن يخبرنا بأن كل حساباتنا هذه لا تسوى في ملكه شيئًا، وأن سننه سبحانه التي جاءت بعض مبادئها في كتابه الكريم شملت علم الأجل المتفرد به سبحانه، وكانت معجزة شفاء صباح التي أربكت كل حساباتنا، شعرت بالندم لموافقتي على هذا الزواج، تعقدت حياتنا كثيرًا وكان سعداوي يبذل مجهودًا مضاعفًا لمحاولة العدل بيننا، كان الوضع حرجًا وفريدًا ولا حل له، وأخيرًا فوجئت به يطرق بابي وبصحبته صباح، غمرتني الدهشة والتساؤل عن سبب صحبتها له، ولكنها احتضنتني بقوة وقالت لي بخفوت:

- لقد علمت كل شيء.

وبعد كثير من الذهول والحديث المطول ومحاولة اصطناع الود، أدركت بأن الحل مع هذه الملاك الوديعة المدهشة لم يكن إلا بالمصارحة.

وأخيرًا بدأت حياتي في الاستقرار ولكن بالطبع مع بعض المنغصات الفطرية والطبيعية، والآلام التي لا بدَّ منها)).

تـمَّت بحمد الله

***

إهداء

إلى الراحلة «صباح علي أحمد بدوي» التي توفاها الله بمرض اللوكيميا، وكانت جملتُها عند الاكتواء بالألم سبباً في كتابةِ هذه الرواية.

كانت تقول: اللهمَّ خَفِّف عنِّي ولو نصف هذا العذاب.

نسألك الدُّعاء لها.

obeikandl.com

obeikandl.com

شكر خاص

شكر خاص وجزيل لكل من ساهم في تقويم هذا العمل:
مع حفظ الألقاب ومراعاة أن الترتيب أبجدي

أحمد المنزلاوي
أحمد طاحون
أسامة الوحش
أعياد رمزي
جهاد السيسي
حبيبة بدر
حنان لاشين
خالد جودة
دعاء ابراهيم حسن
دعاء عبد الرحمن
راوية مصطفى
رشا الكومي
سامي زايد
سامية أحمد
شاكر بدران

شهاب الدين توفيق
عصام عبد الحميد
عمرو خليل
فاطمة الجندي
فاطمة السعيد يوسف
لمى جمال
محبوبة محمد سلامة
محمد سعد التهامي
منى سلامة
منى ياسين
نجلاء عفيفي
نغم الريس
نيفين سليمان
هدى محمد
ياسمين مراد

obeikandl.com

obeikandl.com

عن المؤلف:

- د. أحمد السعيد مراد.
- طبيب وروائي، مواليد المنصورة.
- عضو اتحاد كُتاب مصر.
- صدرت روايته الأولى «ملائكة وذئاب» في يناير ٢٠٠٨م.
- تلاها العديد من الروايات المطبوعة كان أشهرها:

«كتاب الأقدار» و «رُباع» و «ما لا تعلمون» والَّلاتِي نفد منهن الكثير من الطبعات.

- له الكثير من الروايات والقصص القصيرة المنتشرة على شبكة الإنترنت، والتي لم تطبع أشهرها روايتي:

«الزلزال» و «طيور جريحة».

للتواصل مع الكاتب:

- **https://www.facebook.com/ahmedmorad2000**
- **ahmedmorad2000@hotmail.com**

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikandl.com